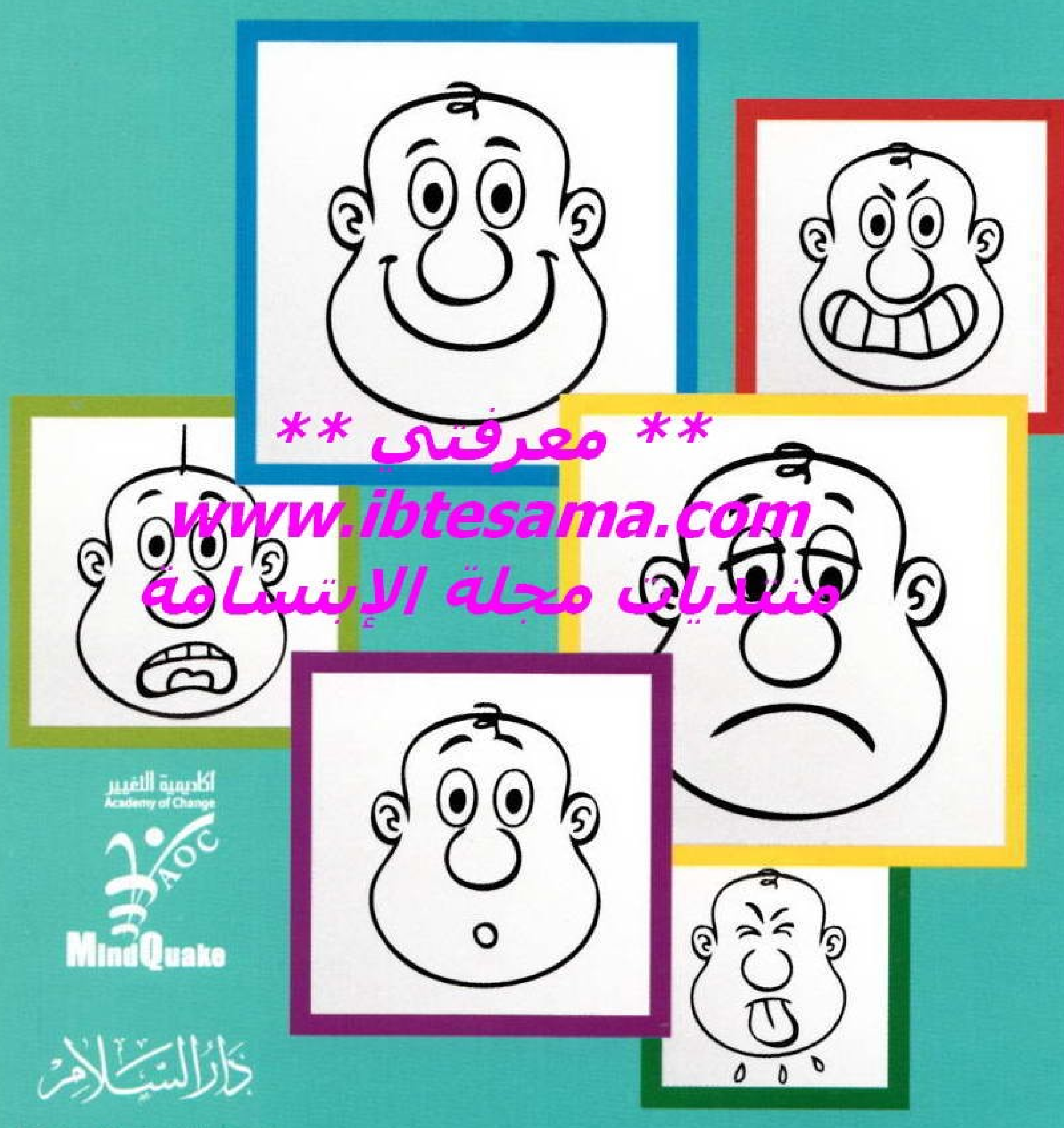
نزهة في شوارع العقل

تأليف/ م. وائل عادل



أكاديمية التغيير
Academy of Change
AOC
MindQuake

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

أكاديمية التغيير
Academy of Change
MindQuake

بطاقة فهرسة : فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشئون الفنية .

عادل ، وائل . نزهة في شوارع العقل / تأليف وائل عادل ؛ مراجعة عادل عبد الحكيم .
- ط ١. - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، أكاديمية التغيير ، ٢٠١٠ .
١٢٠ ص ؛ ٢٠ سم . تدمك ٥ ٨٤٩ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - المقالات العربية .
أ - عبد الحكيم ، عادل (مترجم) .
ب - العنوان . ٨١٤

نشر مشترك

الطبعة الأولى

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد
خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية
وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي -
هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع
من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس -
مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر -
الأزاريطة قسم باب شرق بجانب جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

أكاديمية التغيير
Academy of Change
AOC
MindQuake

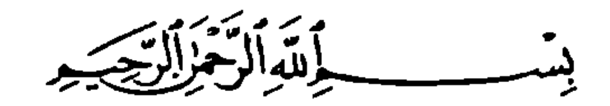


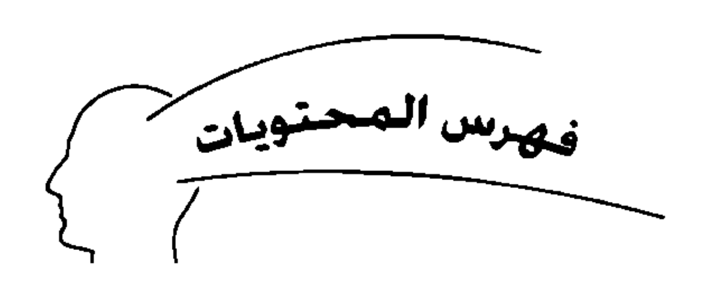
تأليف
م . وائل عادل

مراجعة
المستشار / عادل عبد الحكيم

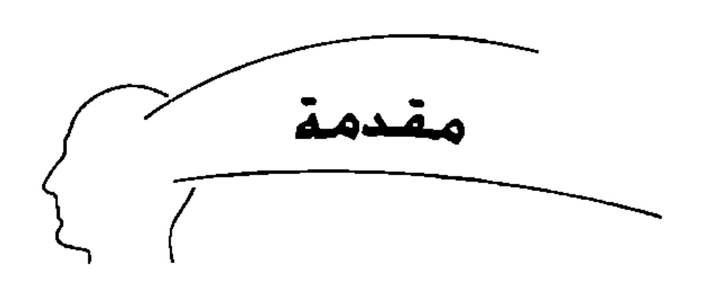


دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة


بسم الله الرحمن الرحيم


فهرس المحتويات

* * *



مقدمة

يعد الاعتناء بتطوير منهجيات التفكير من صميم عمل أكاديمية التغيير؛ لأن أي تغيير يحدث على أرض الواقع يسبقه تحول في فكر القائم على صناعة التغيير، فنحن عندما نعمل للتأسيس لمستقبل جديد، إنما نؤسس له وفق معطيات وتصورات في عقولنا، فإن كانت هذه التصورات إيجابية وناضجة وفعالة؛ انعكست على الواقع بعمل حي يرتقي بالمجتمعات وينميها، وإن كانت هذه التصورات مشوهة أو مضطربة؛ انعكست في ممارسات مذبذبة ومضطربة؛ لذلك فإن ثورة العقول هي بداية التغيير.

وتأتي سلسلة ثورة العقول لتسهم في إحداث هذا التغيير وهذه الثورة داخل العقل، لتطلق أقصى طاقاته لينتزع المستقبل من فم المستحيل. إن ثورة العقول هي التي تمنح الإنسان بريق الفكرة، وبها تتقدم الأمم وتنهض المجتمعات.

نزهة في شوارع العقل:

ويأتي الزلزال الثالث من كتابات « زلزال العقول » بعنوان « نزهة في شوارع العقل » ليتصدى لبعض أنماط التفكير، ويواجه الأفكار القاتلة، ويسلط الضوء على زوايا دقيقة من نمط التفكير الحي الذي ينقل المجتمعات نقلات كبرى.

وقد كان من دواعي حرصنا على إصدار الزلزال الثالث هو انتشار الزلزالين السابقين «زلزال العقول» و«نزيف العقول»[1] بشكل واسع، سواء عبر شبكة الإنترنت، أو الكتب المطبوعة، أو الدورات التدريبية التي طُلبت في عدة دول لتدريس مفردات ما جاء في هذه الكتابات لشرائح عمرية متنوعة.

والأفكار المطروحة في هذا الكتاب - مستوحاة من الواقع الحي، ومن أنماط التفكير والأفكار المنتشرة بين أوساط الشباب - تمت كتابتها في ضوء نقاشات ميدانية، وحوارات عبر شبكة الإنترنت، تم من خلالها رصد مجموعة من الأفكار وأنماط التفكير التي تتطلب معالجة، وبعض الأسئلة التي تتطلب أجوبة.

وكَوْن الأفكار نابعة من الواقع الحي جعل كثيرًا من القراء - كما حدث مع الزلزالين السابقين - يجدون فيها بغيتهم، فهي أفكار يسهل تذكرها وطرحها تبشيرًا بالمستقبل الجديد من قبل رواد التغيير والثورة الفكرية، كما أنها تحمل في طياتها أدوات فكرية يسهل استخدامها للرد على من يريد وَأْد الثورة الفكرية للشباب في أرجاء المعمورة. ولعل هذه القابلية للاستخدام المزدوج، إضافة إلى الصياغة الرشيقة للأفكار، كانا سببين رئيسيين جعلا الشباب يتلقفونها على

---

(١) صدرت الطبعة الأولى من كتاب «نزيف العقول» باسم «زلزال العقول ٢».

اختلاف مشاربهم الفكرية والعلمية والعملية، ليستخدموها - عبر شبكة الإنترنت في المواقع الإلكترونية والمنتديات والمدونات والمجتمعات التفاعلية - لكسر وهم « استحالة الفعل »، أو تقديم رد على سؤال من أسئلة الواقع المطروحة من خلال أجوبة تدمج بين المنطق والفلسفة في مقارباتها.

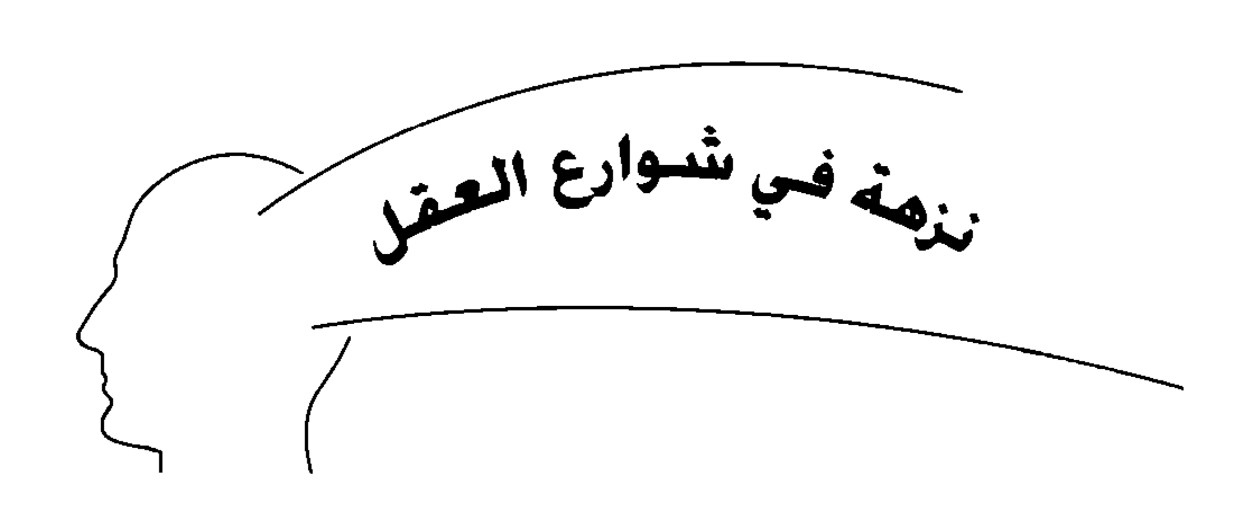
وقد صيغت الأفكار بأسلوب ممتع وشيق، وبلغة سهلة عميقة، وتمت معالجة الأفكار عبر مواقف حياتية متنوعة، حتى لا تنتهي علاقة القارئ بالأفكار بانتهاء القراءة؛ لأنه سيتذكر هذه المواقف كلما تعرض لموقف مشابه، ومن ثم سيستدعي الفكرة المرتبطة بالموقف بسهولة.

وأفكار الكتاب لا تجيب على التساؤلات إجابات حاسمة نهائية بقدر ما تطرح أسئلة على العقل تهدف إلى كسر أغلاله. فالكتاب دعوة للتفكير، والكاتب ليس معنيًّا بالتفكير نيابة عن القارئ؛ لذلك ليس كل ما هو مطروح حقائق يجب تبنيها، فهدفنا هو أن تكون مثل هذه الأفكار موضع نقاشٍ وأخذٍ وردٍّ. فهي لا تشكل نهايات للتفكير، بل بدايات.

قسم الدراسات والأبحاث

أكاديمية التغيير

***



☜ هَلَّا تعرفت على سكان عقلك؟!



لم تكن لدي خارطة توضح الشوارع التي يجب أن أسلكها.. عليَّ الاعتماد على نفسي إذن، وأن أخوض الرحلة متحملًا النتائج ...

كانت تقودني روح المغامرة والفضول، وتتملكني رغبة الاكتشاف، فبدأت بهمة عالية..

فوجئت بِكَمٍّ هائل من الحراس على البوابة.. سألتهم:

لِم أنتم هنا؟ هل هذا عقل محتل؟!

أجابوا بثقة: « نحن حُماته.. نحميه من تسلل الأفكار التي تؤذيه »..

تركتهم وقد غشاني الذهول.. فعدد الحراس يفوق بآلاف المرات عدد الأفكار التي تسكن مدينة العقل، وربما يفسر ذلك سبب الظلمة والإهمال في طرقاتها. فهي مدينة لا يسكنها في الغالب سوى العسكر.

لم يسمح الحراس لي بالدخول.. انتظرت قليلًا، ثم تسللت على حين غفلة منهم عبر ثغرة حدودية.. وما أكثر الثغرات!

مررت بمنطقة منكوبة دُمِّرت شبكة اتصالاتها،ومواصلاتها. علمتُ بعد ذلك من إحدى الأفكار الهامسات أن الحراس هم الذين قصفوها بدعوى محاربة دخلاء متسللين، لقد دمروا مسارات التفكير خشية أن تمر من خلالها أفكار غير مرغوبة، وها أنذا أشم رائحة بقايا دخان تنبعث من المكان. لكن يبدو أن الحراس ليسوا السبب الوحيد في هذا الدمار، فقد كادت قدمي تصطدم بقنبلة موقوتة يسترسل عدادها في العد التنازلي، فبعض الأفكار تفخخ العقل لتنتقم من مخالفيها، فتخلق حالة من الهلع وعدم الثقة بين الأفكار؛ ولذلك ربما تطوعت بعض الأفكار لتجعل من نفسها حارسًا، فهي تريد أن تتأكد بنفسها أن مخالفًا لها لن يطأ مدينة العقل، أدركْتُ لماذا يقطب كل عدو للحياة جبينه أنَّـى

رأيته، فقد دُمِّر الجسر الواصل بين حاجِبَيْه!!

ازداد اندهاشي عندما رأيت تفاوتًا طبقيًّا كبيرًا، فهناك أفكار تسكن العشوائيات، لا تجد ماءً أو هواءً كافِيَيْن لتغذيتها، رغم أنها أفكار حري بها أن تُرعى لتحيا وتسود، فجُلُّ حديثها عن التغيير وبناء عالم أفكار جديد، يعمه العدل والحرية ونمط التفكير المتطور، من الواضح أنها أفكار مضطهدة ومهمشة تعيش على حافة مدينة العقل، وهذا ما يفسر تهامسها وإشاراتها المتكررة بحنق إلى ذلك القصر الشامخ هناك.

فعلى الناحية الأخرى يقبع قصر مهيب، تسكنه قلة من الأفكار المترفة الغبية، التي لا تعبأ بمصير الآخرين، وربما لا تريد لمجتمع الأفكار أن يتطور. والعجيب أنها صانعة القرار في العقل، وهي التي جلبت أولئك الحراس لتحتمي بهم. رأيت سجادة حمراء تصل القصر بالعالم الخارجي، أخذت أتتبعها أريد أن أعرف أين تنتهي، إنها تمتد وتمتد وتمتد، يا إلهي.. ما هذا؟! إن نهايتها تتصل مباشرة باللسان. بل هي اللسان عينه، فمن القصر تخرج الكلمات، وهي رسل الأفكار، ويبدو أن هؤلاء الرسل وحدهم هم المسموح لهم بالظهور والإطلال بصخب على العالم الخارجي. فمَن يسيطر على القصر، يسيطر على اللسان!!

رأيت دكانًا صغيرًا يبيع الصحف المحلية التي تُمَوَّل من

قِبَل القصر، كانت توزَّع على كل فرد في مجتمع الأفكار مجانًا، وتحمل أسماء من قبيل «اكتئاب»، «تشاؤم»، «مستحيل»، «هزيمة»، «تخلف».

تصفحت إحدى الصحف فراعني خبر «مقتل فكرة».. كان الأحرى أن يُعَنْوَن الخبر «استشهاد فكرة»، يا للإجرام!! لم أكن أتصور وجود سجن تُعذَّب فيه الأفكار المتمردة، التي تأبى تجرع الغذاء الفاسد من تلك الصحف، وتدعو إلى إصلاح مسارات التفكير المحطمة، وتغيير آلية اتخاذ القرار، فضلًا عن تغيير الأفكار القاطنة في قصر الرئاسة، كما تدعو إلى فتح الأبواب لكل زائر، فبحسب ما جاء في منشوراتها الثورية أن إصلاح مسارات التفكير كفيل بتأمين الحياة بدلًا من الحراس، والمناظرات والحوارات وملاحم النقد المستمرة في مجتمع الأفكار جديرة بترسيخ أفضل الأفكار وأنفعها، وهي تدعو كذلك إلى تغيير قانون المصاهرة، فأيُّ قانون هذا الذي يسمح لنوعٍ واحد من الأفكار بالتكاثر؟! يجب أن يعاد النظر في الأمر، من أجل تمكين بعض الأفكار المتنوعة من التزاوج لإنجاب سلالة أفكار أَرْقى.

سمعت أصوات فئوس تصرخ ... نظرت إلى جهة الصوت فإذا بمجموعة تحطم تمثالًا بحماس بالغ... أخذت أقترب شيئًا فشيئًا... بدأت أتعرف بدقة على التمثال.. إنه تمثال «الأوسكار»، لم تعد مدينة العقل تمنح الأفكار

المتميزة جائزة «أوسكار الأفكار»، ربما خشية أن يُعبَد هذا الصنم فيما بعد!!

آلمني تدهور مدينة العقل وهيمنة العنصرية عليها، لم يكن في الماضي الطابع الأمني الحذر هو المسيطر على المدينة؛ بل على العكس، كانت مدينة ترحاب تبصر في مدخلها شعارًا يخاطب كل فكرة زائرة.. «نتمنى لكِ حظًّا موفقًا»، فقديمًا كان مصرَّحًا لكل الأفكار بالدخول، وكان دور إدارة المدينة هو تسهيل سبل المرور لكل الأفكار، ثم تعريضها لاختبارات قاسية، لتنجو الأفكار الأصلح، وتتقلد بعد ذلك منصب الرئاسة واتخاذ القرار، وهو منصب قد لا يدوم كثيرًا، فهناك كشف دوري على جميع طاقم رئاسة العقل، ليتقرر مدى فعاليته وجدارته بالقيادة، خاصة مع وجود أفكار أخرى أكثر حيوية تنافس على الرئاسة.

لقد صُمِّم العقل كمختبر للأفكار، لا قاتل لها على الهوية. فلا يعنيه كثيرًا أي الأفكار سيمسك بزمامه بقدر ما يعنيه ألا تعطب أجهزته الموكلة باختبار الأفكار، فهي ضمان التداول السلمي للسلطة فيه، وضمان ألا يخلو عرش العقل من فكرة صالحة. كانت الأفكار تاريخيًّا هي التي تهاب دخول العقل خشية الرسوب، ولم يرتعد العقل فرقًا أمام الأفكار إلا في عصور التدهور.

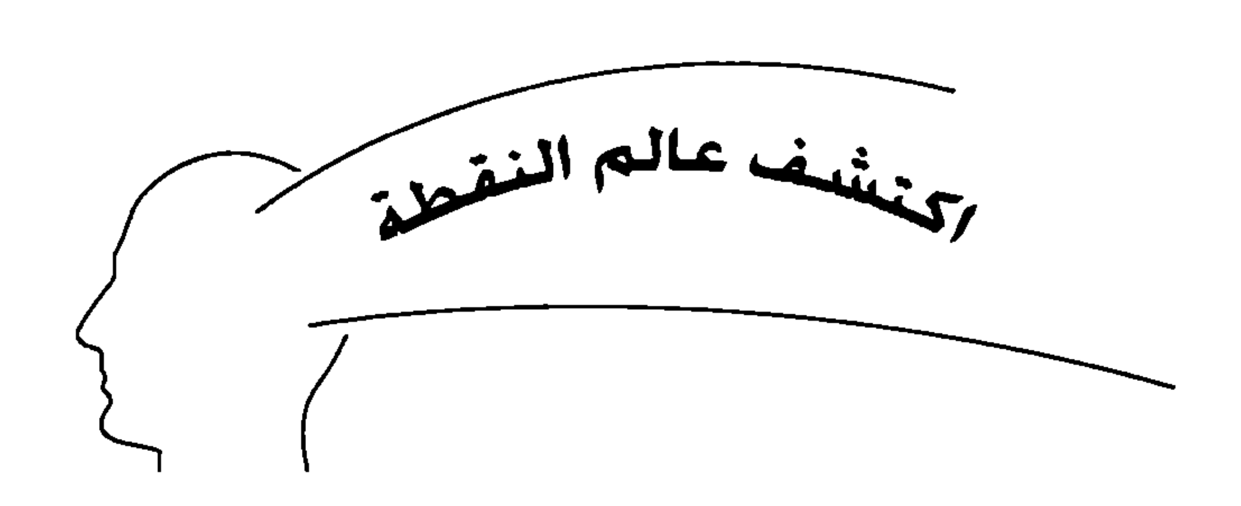
سمعت صافرة إنذار.. يبدو أن الحراس اكتشفوا

وجودي.. أخذتُ أبحث بجنون عن أقرب منفذ يُمَكنني من الخروج.. تخبطت يمنة ويسرة، لم أجد إلا فتحة هناك.. عدوت مسرعًا.. حُشِرْتُ في الممر وأنا أصارع من أجل البقاء.. تمكنت من النجاة أخيرًا متدحرجًا من فتحة الأذن لأستقر على كتفه.

ما هذه الأنوار؟؟ وما هذه الكاميرات التي تصور؟؟ هل كان الإعلام يعلم برحلتي وموعد عودتي؟؟ لا أظن.. ها قد بدأت الأمور تتضح.. فَمَنْ أَعْتلي كتفه رمز سياسي مشهور، وها هو يلقي بيانًا صحفيًّا مصيريًّا الآن.

نظرتُ إلى الوجوهِ المتناثرة من حولي... ثم نظرتُ إلى أذنه الضخمة وقد وقف على حافتها الحراس الذين طاردوني يكيلون لي أقذع السباب.. لم يمنعهم عني سوى أُصبعه عندما أدخله في أذنه كي يهرش وهو يلقي البيان.. لكن سرعان ما وجدتُ أفواجًا من الحراس تركض وتتطاير من أنفه وفمه، لم يكونوا يطاردونني إذن، ولم تكن صافرة الإنذار تتوعدني، مرت أمام عيني سريعًا مشاهد استشهاد فكرة والمنشورات السرية ومعاناة سكان أطراف المدينة، لقد كانت هذه صافرة إعلان ميلاد الثورة.. إعلان الانتصار للأفكار الصالحة داخلنا والتصويت لها.. إعلان تحرر عقولنا ممن يعربد فيها..

***



☜ من يفهم لغة الحياة يستمتع بها ويؤثر فيها

استنفرت زملائي لنبدأ حملة تطهير المكتب من الأوراق القديمة، تَسلَّم كل واحد منا أحد الأدراج ليعيد ترتيبه.. أخذوا يُقَلبون في الأوراق.. رمى أحدهم ملفًا به بعض أوراقي بلا مُبالاة.. أثار الملف انتباه زميل آخر، وانجذب إليه حتى كدنا نعجز عن إخراج وجهه من داخل الملف!!

وأظن أن سر تباين تعامل الزميلين مع الملف أن الأول رأى في أوراقه خمسة خطوط متوازية، بينما رأها الثاني سُلَّمًا، ورأى الأول مجموعة من النقاط السوداء - بعضها له ذيل، بينما قرأها الثاني حروف لغة تنبض بالمشاعر المتدفقة، واعتبرها الأول أوراقًا ليس لها مأوى سوى سلة المهملات، واحتضنها الثاني كثروة من إهداء « بتهوفن ».

كثيرًا ما نواجه في حياتنا رموزًا نتوهم أننا ندرك دلالاتها وعمق ما تحمله من معانٍ، فالطفل الصغير يرى « النوتة » الموسيقية خمسة خطوط تزينها أشكال سوداء، أما الأكبر



سنًّا فيخبرك أنها « نوتة » موسيقية يحار عاجزًا عن فك شفراتها، بينما يتمكن العازف من سماع اللحن بمجرد قراءة « النوتة »، وقبل أن تتكلم به أية آلة موسيقية، فاللحن يتجلى له من أول نظرة، لا ليسمعه؛ بل ليراه!!

تُرى هل في حياتنا أوراق أخرى - سوى « النوتة » - لا ندرك ما فيها إلا باعتباره خطوطًا؟؟!! هل في الأحداث التي تمر علينا يوميًّا ما ننظر إليه كنقط سوداء - ربما افتقدنا ذيلها - فلا نعيرها اهتمامًا؟؟!! وهل ما نعتبره غير ذي معنى هو حقًّا كذلك؟؟!! فعدم فهمنا للنوتة الموسيقية لا يعني أنها خاوية من المعاني.

كم من ثقوبٍ - أشبه بتلك النقاط - نمر عليها يوميًّا دون أن نلقي لها بالًا، لكننا نكتشف إن أمعنا النظر أن هذه الثقوب الضيقة بوابات لعوالم واسعة جدًّا، فعندما تشير إلى ثقب في الحائط فأنت تشير إلى عالم بأسره، إلى عالم النمل!! فإذا تحولت إلى عقلة إصبع، ثم أجريت عملية جراحية لتصبح في حجم ثقب الإبرة، ودخلت من بوابة النمل الكبيرة؛ ستكتشف أن النمل بدوره لديه ثقوب على جدران مملكته،

فإن اقتربت من أحد الثقوب ستبصر عالمًا جديدًا، وهكذا..

وهذه العوالم المتشعبة ليست في العالم المادي المشاهد فحسب؛ بل توجد في حياتنا الاجتماعية والسياسية عوالم تتشعب منها عوالم، فعندما ينظر لك أحدهم بضيق، فاقرأ « نوتة » وجهه بدقة، هل هو فعلًا يعنيك أنت؟ وهل أصابه الضيق عندما رآك أم إنه كان متبرمًا من قبل أن يراك؟! وهل أنت السبب المباشر؟ كل هذه ثقوب تقودك إلى عوالم جديدة، مما يجعل إطلاق الأحكام على ما نراه ليس يسيرًا، فلربما اقتربت من عدو لك، لتكتشف أنه ليس بقعة سوداء اعتَدَتْ على الخمسة خطوطٍ وشوهَتْ الصفحة، فأحيانًا تنشأ العداوة نتيجة جهلنا بخصومنا، لا معرفتنا بهم!!

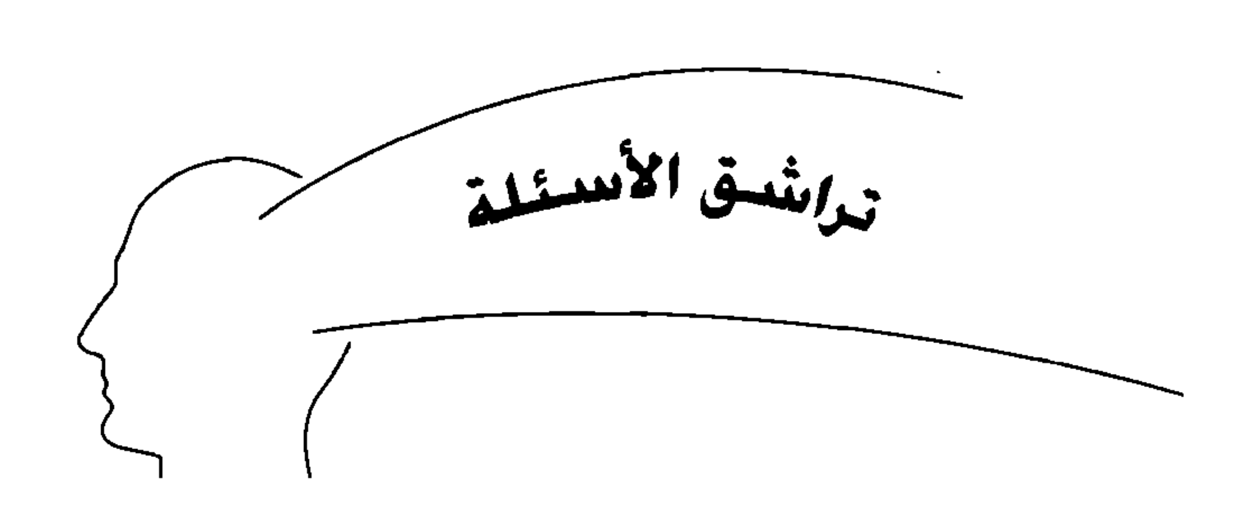
إن هذا يدفعنا دائمًا إلى طرح الأسئلة على ما نراه، فربما نرى القشرة وتعمَى عيوننا عن رؤية الجوهر، اقتربنا مما نراه وازددنا عمقًا في طرح الأسئلة عليه؛ اخترقنا جدار القشرة لنكتشف عوالم جديدة، وهذا يجعلنا نعيش حياتنا كمكتشفين، مما يزيد من متعة الحياة، ويتجدد لنا يوميًّا إبهارها.

فلكي نستمتع بالحياة يجب أن نفهم لغتها، ولكي نتمكن من التأثير فيها فعلينا أن نتقن طرح الأسئلة عليها، ولكي نتجنب أعاصيرها يجب أن نسمع أصواتها قبل أن نراها، فلحن الأعاصير مدون على « النوتة » التي لم نُعِر

لها بالًا، وسرعان ما تقع في يد عازف محترف متعصب حقود، ويل للعالَم منه إن داعب أوتار آلاته. حينها سيكون السؤال.. هل فاجأتنا الأعاصير حقًّا؟! أم أننا لم نحسن قراءة « النوتة »؟؟!!

خرجنا إلى الشرفة لنستريح قليلًا من عناء ترتيب المكتب، فإذا بنقطة جديدة تطالعنا، وثقب آخر يرتل علينا نفس الفكرة مؤكدًا إياها، فالبعض يعتبره كشافًا للنور في الصحاري، والبعض الآخر يزجُّه دون إذن في قصيدة حب، لكن هناك آخرين ينظرون إليه باعتباره العالم الجديد، فالقمر إحدى المستعمرات التي يتصارع عليها من يحسنون قراءة « نوتة » السماء. وفي الوقت الذي نرفع رقابنا لأعلى كي نراه؛ سنجد آخرين يعزفون على أوتار السماء بقوة، تتدلى أرجلهم على حافة القمر المستديرة، ويحنون رؤوسهم كي يرونا!!

***



☜ لحظة النصر هي لحظة الإجابة الخطأ



تعلمت وأنا سائر في الشارع أو أتابع الأحداث أن أفك شفرات الرموز التي أمامي وأحولها إلى جمل استفهامية، فالمباني ليست أحجارًا ولكنها جُمل تحمل أسئلة شاهقة، والمتجولون في الشوارع ليسوا بشرًا من لحم ودم، ولكنهم جمل متحركة مشبعة بالأسئلة. ربما يكون هذا من أسباب عدم اكتراثي كثيرًا بعالم المادة وعشقي لعالم الأفكار.. حيث إنني أصهر المادة إلى فكرة؛ حتى أتمكن من فك شفرات ما أرى!!

- فهذه الفتاة الفاتنة التي رأيتها بالأمس تسير في الشارع؛ قرأتُ فيها سؤالًا موجهًا إليَّ مباشرة، « هل أعجبك شكلي؟»،

ثم اكتشفتُ أنه ليس سؤالًا واحدًا، فقد طرح مظهرها سؤالًا أعمق.. « ما هو الجمال في نظرك؟ »، ثم اقتحمت الأسئلة عليَّ خلوتي بدون إذن.. « هل تتزوج فتاة على نفس هيئتي؟»، ثم إذا بالسؤال يغوص في أعماق حياتي..« هل ترغب أصلًا في الزواج؟ »، هذه الفتاة طرحتْ عليَّ ألف سؤال وسؤال، لا أدعي أنها خَصَّتني بتلك الأسئلة، كما لا أزعم أنها طرحت نفس الأسئلة على كل المارين، ربما احتفظت فقط بحقها في تلاوة السؤال الأول على الجميع!! لكنها خلقت حوارًا طويلًا معي، استمر نصف ساعة تقريبًا، رغم أنني لم أَرَها سوى بضع ثوان!! كنت سأستمر في ذلك الحوار معها، لولا أن أحدهم بَدَّل ورقة الامتحان وفاجأني بأسئلة جديدة.

- شخص أظنني أعرفه من قبل، تطرح هيئته القادمة من بعيد سؤالًا.. « هل تعرفني؟ »، وسرعان ما أجدني أجيب على السؤال إما بالاقتراب منه وتفحص ملامحه، أو بطرح سؤال مباشر عليه.. « هل أنت فلان؟ ».

- لاحظت أيضًا أن هناك أناسًا لا أعبأ بهم في الشارع - تمامًا مثلما أظن أن تلك الفتاة لم تنتبه أصلًا لوجودي في الشارع وسط مئات المارة - لكن هذا لا يعني أن من لا نعبأ بهم لا يطرحون علينا أسئلة، ربما يطرحونها بلغة لا نفهمها، أو نتجاهل إجابتها.. فتلك العجوز القابعة في زاوية تفترش

الأرض وتبيع مناديل ورقية، قد أدعي أنني لم أتلق سؤالها.. لكن بقليل من الصدق مع النفس أجد السؤال قويًا مزلزلًا مشاعري.. « ألن تساعدني؟! »، وبقليل من الإنصات والعمق أجد السؤال المخيف في عينيها: « هل تعلم أن هناك ملايين مثلي؟ ».. اخترت الإجابة على السؤال الأول ربما لأنه الأسهل، فأخرجت المحفظة من جيبي.. لكن يبدو أن المحفظة تطرح أيضًا أسئلة، فقد وشت بي متسائلة.. « هل يمكن سرقة هذا الشخص بسهولة؟ »، وبالفعل أجابها لص ماهر وانتزع المحفظة من يدي، تمكنت من رؤيته، فطرح عليَّ جسده الهزيل سؤالًا مستفزًّا: « هل تجرؤ على ملاحقتي؟ »، فأجبته منقضًّا عليه.

كنا نتبادل لكمات الأسئلة والأجوبة بشكل جنوني سريع، وأعتقد أنه يمكن النظر لأي صراع باعتباره تراشق أسئلة، فكل طرف يرمي خصمه بسؤال صعب ليرى كيف سيجيب عليه.

- أخذ الشارع يزدحم فجأة، يبدو أن الناس احتشدت لتعرب عن تقديرها لما فعلتُه مع اللص، شعرت باضطراب في الرؤية من فرط الكثافة البشرية التي تحيط بي، أتمنى أن أنظم الجميع مثل ما يحدث لطلاب المدارس قائلًا: ليتقدم القصير إلى الأمام وليرجع الطويل إلى الخلف، حتى أتمكن من الرؤية.. رؤية الأسئلة.. السؤال الطويل والقصير!!

خاب ظني في الجموع.. إنها مظاهرة إذن لمجموعة من الشباب، ينهالون بالسباب على فريق كرة القدم الذي يشجعونه، استولت الحيرة على أعينهم لتقذفني بسؤال.. « لقد فزنا المرة الماضية على نفس الفريق بنفس الخطة.. لماذا لم نفز هذه المرة؟! »

البعض تغمره نوبة الفرح بعد اكتشاف وسيلة جديدة ناجحة، ويظن أنه بذلك عثر على طريق التفوق، وهذا صحيح إن كان يواجه خصمًا غبيًّا كسولًا، لكنه إن كان أمام خصم ذكي فسيختلف الأمر، عليه أن يحسن فن طرح الأسئلة الجديدة المباغتة!!

إن استخدام وسيلة جديدة يعني رشق الخصم بسؤال جديد لم يتدرب بعد على إجابته، ومن ثم فاحتمال الخطأ في الإجابة سيزداد بحسب صعوبة السؤال، لكن إذا طُرح نفس السؤال مرة ثانية؛ فيُفترض في الخصم العاقل أن يكون قد تجهز لإجابته. بإمكانك أن تستمر في طرح نفس السؤال طالما أنك متأكد أن الخصم لم يجد إجابة بعد، مع الوعي بأنك فقدت عنصر المفاجأة.

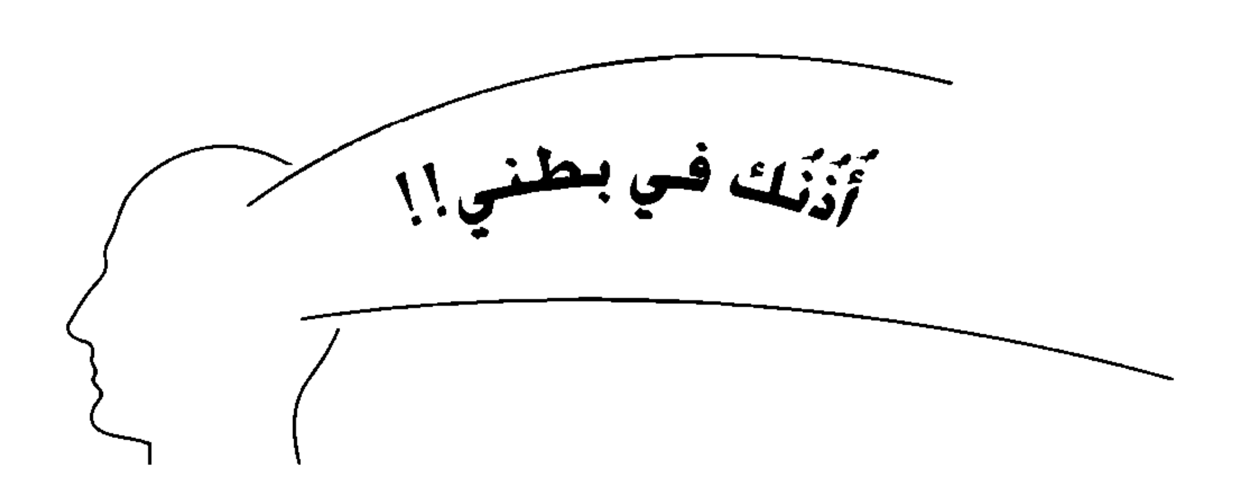
هما عنصران إذن.. المفاجأة والجدة؛ فالمفاجأة تسبب تلعثم الخصم حتى لو كان يعرف الإجابة، أما الوسيلة الجديدة فتتيح فرصة أكبر للخطأ في الإجابة، فإن اجتمع العنصران عظمت فرص النجاح.

وليست العبرة بطرح سؤال جديد مفاجئ فحسب، فأحيانًا ترتد الأسئلة على أصحابها بإجابة صاعقة مفحمة؛ كتلك الإجابة النووية التي أجابت بها أمريكا اليابان، لتندلع في الحرب العالمية الثانية براكين وحمم علامات استفهام جديدة لن ينساها التاريخ. يجب أن يكون السؤال الجديد المفاجئ مدروسًا، حينها يكون الأمل في لحظة النصر مشروعًا، وهي ليست لحظة طرح السؤال، بل لحظة الإجابة الخاطئة.

عادت الفاتنة - التي طرحت عليَّ أسئلتها - مرة أخرى إلى الشارع.. يبدو أنها كانت تتسوق.. سمعتُ أحدهم يغازلها.. الموقف يتطور بإيقاع سريع جدًّا.. نزل رجل ضخم الجثة من سيارته ثائرًا، يا إلهي!! إنه زوجها وكان ينتظرها. لا أظن أنني بحاجة إلى وصف ما أصاب ذلك المراهق الذي غازلها.. لقد أجاب على سؤال الفاتنة الإجابة الخطأ، فكال له زوجها آلاف الأسئلة الدامية!!

ليته قرأ حكمة سان تسو الصيني وهو يُؤصل لفن الحرب - وما الغزل عنها ببعيد: « تقع مسؤولية حماية أنفسنا من الهزيمة على عاتقنا نحن، لكن فرصة هزيمة العدو يوفرها لنا العدو نفسه جراء خطأ يقع فيه ».

***



التجربة وحدها تقرر



ذهبت إلى زيارة ابن أخي الأكبر... رأيت ابتسامته العذبة تنتظرني في مدخل البيت... اقتربت منه... ثم انحنيت... حملته على كتفي مقبلًا إياه... ثم أعطيته الحلوى!!

أخذت ألعب معه... أتظاهر بأنني أقطع أُذُنه بيدي ثم

آكلها، فإذا به يبكي، سألته: « هل تريد أذنك مرة ثانية؟ »، حرك رأسه بالإيجاب بعد أن خنقته عبرته... تظاهرت بإخراجها من فمي ثم ركبتها له.

تعجبت من عقلية ابن أخي الذي لم يبلغ الثلاث سنوات، كيف يصدق أنني أكلت أذنه؟؟!! بل كيف ظن أنها غادرت موقعها؟؟!! ما هذا الغباء؟؟! إن قطرة دم واحدة لم تتدحرج على صدغه!!

ربما لا يستبعد حدوث ذلك؛ لأنه لم يكتشف بعد قوانين الطبيعة التي نعتبرها حتمية، فعقله لا يرى ما يمنع أن تُقتلع أذنه بهذا الشكل، ولا يجد لزامًا على قطرة الدم أن تُشَيِّع أذنه في مثل هذا المصاب، ربما تكفي قطرات المياه المتدفقة من عينيه. كما أنه لا يعاني أزمة فكرية في تصور إمكان إخراج أذنه سليمة من بطني، فضلًا عن تركيبها مرة أخرى بهذه البساطة، فليست بطني إلا وعاء كالعلبة التي يضع فيها ألعابه!! ولم يتساءل.. أنى له أن يسمعني بدون أذن؟؟ فلا علاقة لهذه التحفة الفنية « الأذن » بحاسة السمع، خاصة أن تجويف أذنه المسلوبة لم يتم ردمه بعد!!

من أهم خصائص الأطفال أنهم ينظرون إلى العالم بدون مسلمات مسبقة؛ لذلك لا يتعجبون مما نتعجب منه، ويتعجبون مما لا نتعجب منه، فلا ينظرون إلى الحاوي الذي يسكب الماء في قبعته كبطل يقوم بأمر خارق؛ لأنهم

لا يعرفون قانون الجاذبية، فما العجب في أن تضع الماء في القبعة ثم لا ينسكب إن جعلت فتحتها لأسفل؟!! وربما نظروا إلى الكبار الذين غشيتهم علامات الاستفهام ونوبات التصفيق للحاوي كمتخلفين عقليًا!! لكنهم في نفس الوقت يتعجبون من أشياء لا تستثير عقولنا - ليس بالضرورة لأننا نعرف حقيقتها، فيسألوننا على سبيل المثال: لِم لا ترتدي ظلالنا سوى اللون الأسود رغم تنوع ألوان ثيابنا؟!!

وللعلماء كذلك عقول أطفال، لا ترى البديهيات مثلما يراها عموم الناس، بل تسعى لاختبارها ومحاولة فهم القوانين التي تحكمها؛ ولعل نموذج نيوتن في معالجة فكرة الجاذبية بسقوط التفاحة خير دليل على ذلك. فقد طرح سؤالًا يبدو لنا غبيًا، « لِمَ سقطت التفاحة.. لِماذا لم تطر لأعلى؟! ».

وليس التحدي في أن تكتشف قانونًا يفسر لك قضايا واقعك المعاش؛ بل المهم أن تكتشف القانون الصحيح، أن تتأكد من صحة التفسير، فعندما يتزامن موعد نوم طفل مع موعد تناول كوب الحليب، قد يتساءل.. هل هناك علاقة بين الحليب والنوم؟؟ نعم.. قد يظن أن تناول الحليب هو سر نوم الأطفال، فقد وضع قانونًا يربط بين الحليب والنوم، فإن أحضرت له أمه حليبًا في وضح النهار؛ فرَّ هاربًا صارخًا: « لا أريد النوم الآن »!!

ونحن في حياتنا يجب أن نحذر الربط بين أمور ليس بينها علاقة سببية صحيحة، مكونين قواعد تصبح مسلمات نُلَقِّنها مَنْ بعدَنا؛ كأن نعزي التدهور السياسي لأسباب نعتبرها يقينية وهي ليست بالضرورة كذلك، أو نفسر أحداثًا في أعمالنا وحياتنا بشكل لا علاقة له بحقيقة الأمور.

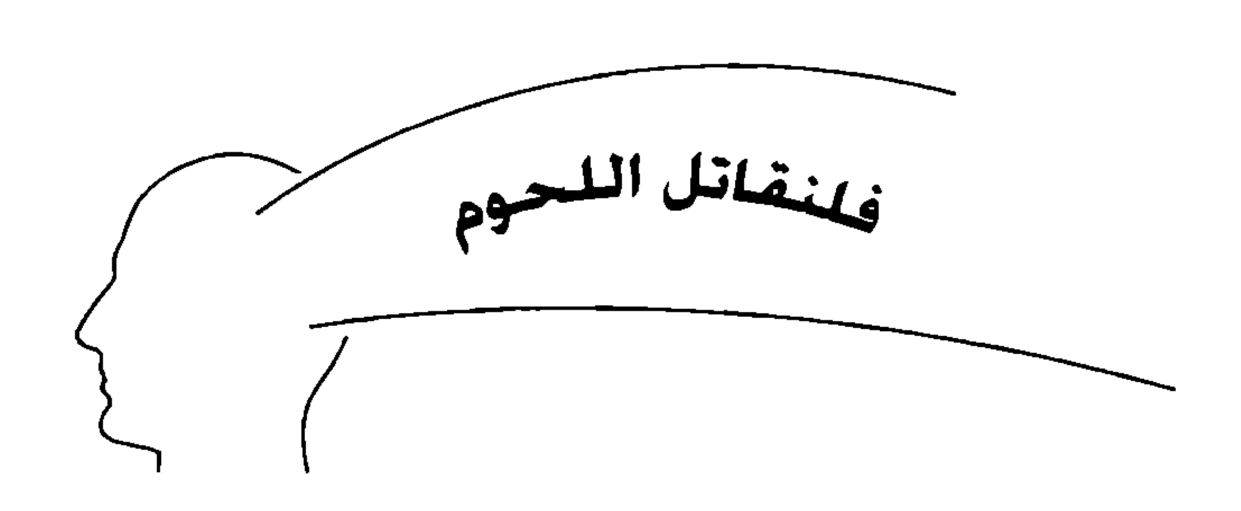
لذلك بعد أن تظهر ملامح لتفسير ما؛ تكون التجربة خير سبيل للتأكد من صحة هذا التفسير. وأصحاب العقول يؤمنون بأهمية التجربة للتأكد من صحة المسلمات والتصورات عن الواقع، ساعين إلى اكتشاف القواعد على حقيقتها، لا كما يتمنون أن تكون، فيختبرون ما طرحه الأقدمون باعتباره حقائق، وقد يكتشفون صحة بعض ما طرحوه، وفساد بعض المسلمات التي كان يُعتقد بيقينيتها، مقتربين أكثر مما اعتبره الآباء خطوطًا حمراء.

فهناك عقول مقدامة يُطلق عليها « كاسحات الخطوط الحمراء »، ترى في تلك الخطوط خير محفز على التجربة، فوحدها التجربة هي التي ستكشف مصير هذه الخطوط في الواقع، فربما كان الخيط في العقل وتدلى على عين صاحبه فظنه موجودًا في الواقع، وربما اكتشف صاحب التجربة وجود الخطوط، لكنها ليست صلبة في حمرة الدم كما لَوَّنها له عقله، وربما أيقن بقسوة صلابتها وشدة حمرتها، فقرر التوقف عن محاولة اختراقها وبحث عن منفذ آخر، أو ربما

رأى ضرورة وجودها فأضاف خطًّا إضافيًّا لدعمها.

بعد أن أعدتُ أُذن ابن أخي سيرتها الأولى، إذا به يأتيني ضاحكًا مخرجًا لسانه لي قائلًا: « الأذن لا تُقطَع... هاهاها »... لقد كان هذا هو القانون الذي علمه له أبوه باعتباره حقيقة، لكنه عندما يكبر سيكتشف بالتجربة أن قواعد اللعبة يمكن تغييرها، وأنه حيث تغيب القوانين في العالم؛ ما من شيء إلا ويُقطَع!!

***



☜ التفسير المريح

اشتهر بيتها بإعداد أفضل كوب عصير طازج.. كنت في الشارع المجاور لها، فعزمتُ على زيارتها للاطمئنان عليها... لا.. ليس الاطمئنان فقط.. لا أنكر رغبتي في تناول عصيرها اللذيذ.

طرقتُ الباب وقد خفضتُ بصري لأسفل... فُتح الباب... وإذا بي أمام قدم فيل خشيت أن يخطو للأمام!!

- لا يا بني... أنا أعلم ما أعاني منه... إنها حالة بسيطة، وهذا الانتفاخ في قدمي سببه أنني أكلت اليوم بقوليات ولحوم. لا تقلق سيكون كل شيء على ما يرام، لا داعي للذهاب إلى الطبيب.. أشكرك على اهتمامك.

- هل أنت متأكدة أن هذا الانتفاخ بسبب البقوليات واللحوم؟

لم تعر السؤال اهتمامًا، فلم تكن تسمع سوى الأسئلة

التي تستطيع أو تريد الإجابة عليها، فتأكدتُ أنها تخمن سبب الانتفاخ، فالذهاب إلى الطبيب بالنسبة للعجوز يعني كشف المستور.. كانت تهاب إجراء أية أشعة أو فحوصات دورية خشية اكتشاف أمراض.. كانت تميل إلى التفسير المريح.. إلى إرجاع كل ألم أو انتفاخ إلى البقوليات واللحوم. وربما أكلت من تلك الأصناف متعمدة لتزيد التفسير إحكامًا، ولتُمَكِّن راحة البال منها، فهي الآن تعرف علة مرضها!!

واللجوء إلى التفسير المريح قد يكون سببه الخوف من المجهول، فالعجوز تخشى اكتشاف مرض عضال، وقد يكون السبب هو خداع الأيديولوجيا، حين يتوهم معتنقوها أنها وحدها تمنح التفسيرات الحقيقية، أو يكون السبب هو تبرير الاستمرار في سلوك بعينه، أو الشعور بالعجز أمام توابع واستحقاقات أي تفسير جديد، فقد زجر « كونت » المجهر في القرن التاسع عشر وأدانه؛ لأنه فضح زيف الصورة البسيطة لقوانين الغازات، لقد أقضَّ المجهر مضاجع العلماء ونال من التفسير المريح.

عندما ألححتُ على العجوز كي تذهب لاكتشاف الأسباب الحقيقية بدت منزعجة، قطبت جبينها، وحملت عصاها متوعدة، فهي تضيق بكل من يخرجها من العالم الوهمي الذي خلقَته لنفسها.

أتاها ضيف ونحن جلوس.. نظر - بعد أن جلس- إلى

قدمها، قال لها: « لا تقلقي يا « حاجَّة »، البقوليات واللحوم تفعل أكثر من ذلك »..

انفرجت أساريرها... نظَرَت إلـيَّ باستخفاف... سَأَلَتْ الضيف: « ماذا تحب أن تشرب يا « أمير »؟... بالتأكيد تريد العصير.. هاهاها »... ولم تلتفت إليَّ رغم مكوثي معها ما يزيد على نصف الساعة... عرفت أنها تدني منها أولئك المريحين الذين يرددون ما تود سماعه. فهي لا تستطيع أن تعيش بلا تفسير، لكنها تريد علة تشعرها بالأمان، فغياب التفسير كابوس فظيع، والمهم أن تعثر على أية علة، وكل تفسير صادم تقاومه بقسوة طاردة إياه بلا رجعة. وبالفعل خرجتُ ولم أعُد، دون أن أتناول حتى كوبًا من الماء بعد أن جفَّ حلقي!!

كانت الأعداد تتوافد لزيارة العجوز، وكان مقابل الحصول على مشروب من العصير الشهي هو التأكيد على تلك العلة المنتقاة، وإدانة البقوليات واللحوم، ليستمر خداع الذات بِتبَنِّي ذلك التفسير المريح، ثم ترديده كثيرًا وتكثيفه في الذهن وترويجه في الوسط المحيط حتى يصبح نظامًا مهيمنًا على التفكير، يقصي أي تفسير آخر.

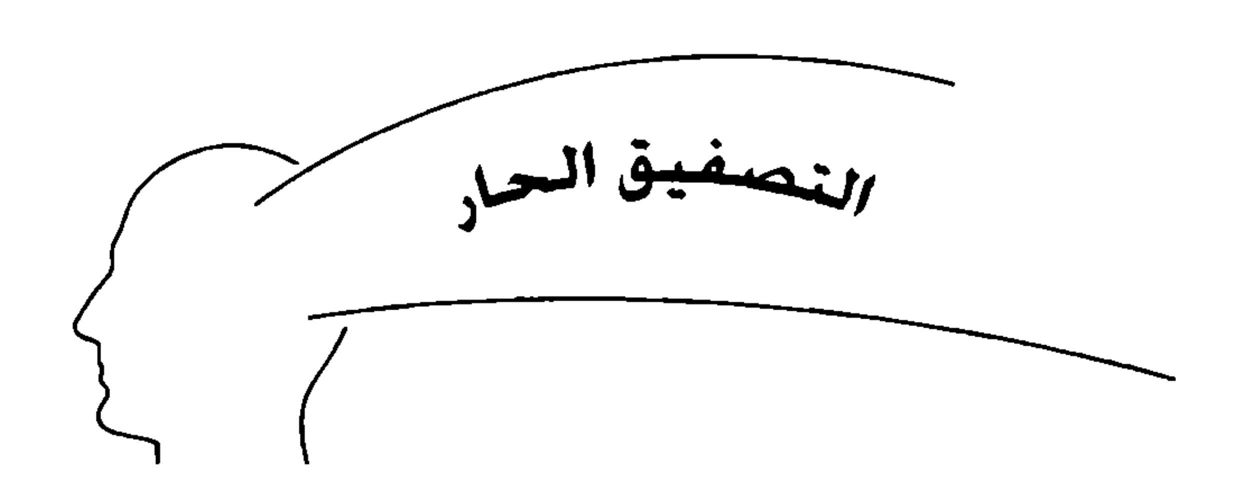
وليت الأمر يتوقف عند التفسير، فأصحاب التفسير المريح يتحمسون للتعامل مع هذه العلة المريحة، فيضعون خططًا ويقيمون مشاريع بناء عليها، فيضيعون العمر

والجهد؛ حيث يحيون على الوهم ويتحركون من أجل نصرته، مؤسسين « مشاريع الوهم » التي تعالج العَدَم، إنها عين الوهم وإن بدت شامخة لأنها لا تعيش في عالمنا، فهي تسبح في عالم الوهم المريح، وتحتفل بانتصار الوهم على الحقيقة. حشدت أفواجًا مريحة أمام العجوز، هزت المجلس بهتافها المريح « فلنقاتل اللحوم »، بعد أن شربت العصير المريح.

لم أغير موقفي، ولم أركب الموجة معلنًا الحرب على البقوليات واللحوم؛ لأنني أؤمن أننا عندما ننال من التفسير المريح ندفع بأنفسنا دفعًا نحو اكتشاف العلل الأخرى، عندما نقاوم التفسير المريح كمنهج تفكير فإننا نعلن - بجرأة - طي صفحة من تاريخ السذاجة والعبث والهزائم، واقتحام مرحلة الوعي والجد والانتصارات.

لا أنكر أنني افتقدت العصير اللذيذ، لكنني تيقنت بعد أسبوع أن التفسير المريح يهب طمأنينة مؤقتة لا تلبث أن تفر أمام طغيان الأسباب الحقيقية... فقد ماتت العجوز!!

***



التصفيق الحار

☜ فن توديع الأفكار

تزاحمت الكاميرات لالتقاط الصور... أصابتني الحيرة... لماذا يصور الناس ذلك المشهد؟! هل يحتفلون بغروب النور أم قدوم الظلام؟! ولماذا يُوَدِّع النور أرضنا بهذا السحر الخلاب؟! تمامًا مثلما يفعل صباحًا مع أول شعاع للشمس يشق الوجود!

إننا نعيش مشهدًا تاريخيًّا؛ مشهد الغروب البديع، غروب أفكار وإشراقة أفكار جديدة، غروب أطروحات وزعامات ومشاريع وإطلالة أطروحات وزعامات ومشاريع، إننا في المجمل نشهد عن كثب أفول عصر وبزوغ عصر جديد.. فيا لروعة المشهد!!

ولا ينبغي أن نأسف على مشهد الغروب أو نحاول منعه، أو نخدع الذات بتثبيت الصورة قليلًا؛ فمشهد الغروب يحمل جمالًا لا يقل روعة عن تلك التي يبهرنا بها سحر الشروق. وعلينا أن نقف جميعًا لنصفق بحرارة لغروب الأفكار مثلما

نصفق بحماس للأفكار المشرقة القادمة؛ فقد لعبت دورًا على المسرح، وآن لها أن تغادره، وآن لفكرة جديدة أن تفوز بإعجاب الجمهور، وإلا أصابه الملل واليأس من متابعة مسرح الأحداث فضلًا عن الرغبة في القيام بدور الممثل لا المتفرج.

قد يصفق البعض للأفكار قُبيل خروجها من خشبة المسرح إما تقديرًا لها، أو تعجيلًا بخروجها، أو نشوة بمشهد الأفول، ولن تعنينا كثيرًا هنا الدوافع، المهم أن نصفق بحرارة لتلك الأفكار التي فقدت مبررات وجودها.



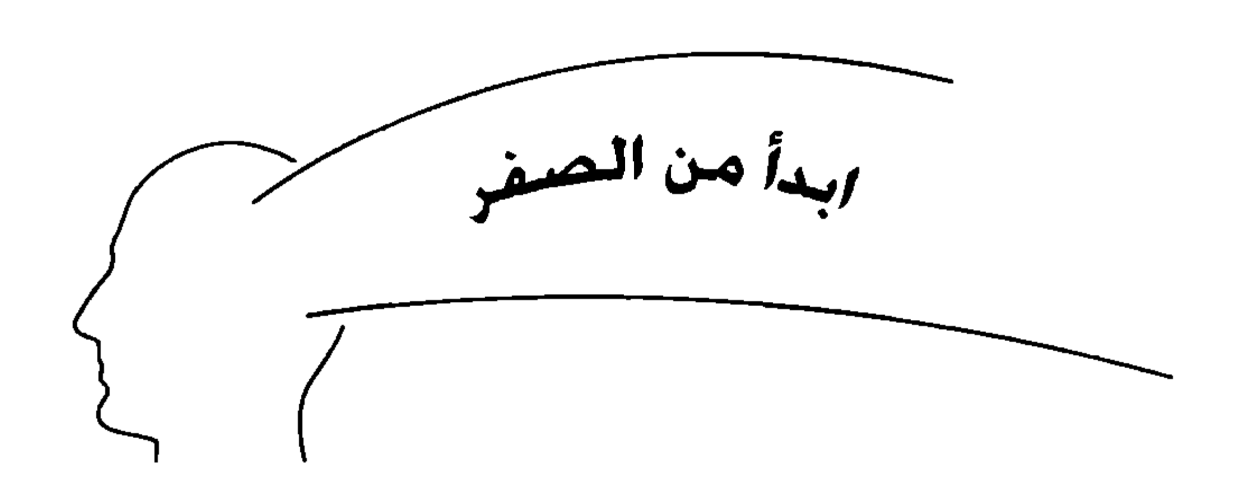
وإستراتيجية التصفيق الحار قد تُستخدَم بمكر لتدمير الأفكار ذاتيًّا؛ فكم من شاب كان يحلم بالوقوف على خشبة المسرح وهو ناضب الموهبة، غير أن مبغضيه أغروه ليتقدم إلى اختبار المسرح، فانتفخ زيفًا، ثم وقع دون أن تقوم له قائمة. فقد تم إيهام الفكرة المراد إزاحتها أنها تسير في الطريق الصحيح، لتتوقف حركة النقد فيها، وتظل حاملة صورة مشوهة عن الواقع وسبل معالجته، منطلقة بكل اندفاع نحو

نَخْبِها، فكل تصفيقة حارة تعني إكساب الفكرة مزيدًا من الغرور يمنعها من المراجعات، وكل صافرة إعجاب تعني دفعة محكمة للفكرة كي تصطدم بالحائط.

ويمكن أن نفكر بطريقة أكثر رحمة، فنترك للأفكار الآفلة ممرًّا تخرج منه، خاصة عندما نريد التعجيل بخروجها بعد أن استوت أفكارًا أكثر نضجًا وفعالية. تخيلت الممثل بعد أن أنهى دوره وأُسدِلت الستارة من خلفه يحاول أن يجد مخرجًا منها، لكنها بدت مصمتة بلا منافذ، فأصابه التشنج، وتصبب العرق منه وهو يذرع المسرح ذهابًا وإيابًا منقبًا عن فتحة في الستارة المسدلة دون جدوى، فانفجر الجمهور ضاحكًا، فصب الممثل بدوره وابلًا من السباب عليه، وأصبح قدرًا حتميًّا على الجمهور أن يتابع حركته على المسرح ويتلقى وابل السباب إلى أن تُحلَّ الأزمة.

قد يكون من الحكمة أحيانًا أن نسمح للأفكار الآفلة بالخروج من عالمنا محفوظة ماء الوجه، لتسير جَزِلة في قناة محددة عبر ممرات مدروسة تصل بها إلى متحف الأفكار، حيث يزورها المئات كل يوم!!

***



☜ صفر القمة

- نهره ضابط المرور: هذه ليست مشكلتي... السيارة عليها مخالفات بقيمة (٥٠٠٠) دولار. أجابه الشاب في حيرة: لكنني اشتريتها منذ بضعة أيام، ولم أستكمل دفع أقساطها بعد، كانت سيارة جدِّي، ولم أرتكب بها مخالفة واحدة، ربما ارتكب هذه المخالفات قبل أن يموت، إنه... قاطعه الضابط: لا شأن لي بقصتك... أمامي سيارة ارتكبت مخالفات... فمن المسؤول؟؟ من أحاسب الآن؟؟ لا شأن لي بجدك الذي مات... ولن أقاضيه في قبره... أنت الآن تستقل هذه السيارة، وعليك أن تسدد قيمة المخالفات.

عاد الشاب بذاكرته إلى الوراء متذكرًا جده، لم يَدْرِ هل يدعو له أم عليه، لكنه ثاب إلى رشده وعلم أنه وحده المسؤول، حين رفض نصيحة عِز!!

فلكم أخبره صديقه عِز أن يبتعد عن السيارات المستعملة، فالأفضل أن يشتري سيارة جديدة « Zero »، حتى وإن كلفته مبلغًا أكبر؛ لأنه وحده الذي سيصنع ويدون تاريخها، ابتداءً

من تاريخ قطع الغيار إلى تاريخ المخالفات، إلى عدد الكيلومترات المقطوعة.

- خرج الرجل من عند الضابط مستقلًّا سيارته الحمراء الجديدة القديمة، فهي جديدة بالنسبة له، لكنها طاعنة في السن.. فجأة رأى شبابًا يهرولون نحوه، يحملون في أيديهم هراوات، أما وجوههم فنسجت خطوط القسوة ملامحها. إذا بهم يهتفون، ها هو صاحب السيارة الحمراء رقم (١٩٥٠)، ها هو قاتل صديقكم!! حاول أن يقنعهم أنه لم يقتل أحدًا، نعم ربما قَتَلَتْ السيارة صديقهم، لكنه لم يفعل، قد تكون السيارة اقترفت جرائم في ريعان شبابها، لكن ما ذنبه؟! أخبرهم أن عمر السيارة أكبر من عمره، ثم أقسم أنه لم يكن هو سائقها، كان من الصعب أن يقنع هراواتهم بالحقيقة، فقد وجدت جسدًا طريًّا تطحنه!!

يتكرر هذا المشهد في الحياة بأشكال متعددة، فأحيانًا يلتحق الشباب بمؤسسات أو مشاريع قديمة، ثم يفاجأون بعد فترة أن عليهم سداد فواتير أشياء لم يفعلوها، أو تصعقهم أعداد الخصوم الذين يتربصون بهم، ليس بالضرورة بسبب طبيعة المشروع؛ بل أحيانًا بسبب طبيعة ممارسات من سبقهم.

قد يظنون أن بإمكانهم إقناع خصومهم أنهم مختلفون عمن سبقهم، وأن المخالفات التاريخية ليسوا هم صُناعها، لكن تُرى هل سيقنعونهم بإسقاط الفواتير السابقة؟!

ربما يتخوف البعض من البدايات الجديدة محتجًّا بالمقولة السائدة « هل نبدأ من الصفر؟ ».

وأقول.. لِمَ لا؟؟!! فلنبدأ من صفر الأطروحات، فأطروحات السابقين ربما كانت مناسبة لعصرهم لكنها لا تناسبنا اليوم، ولسنا في حاجة إلى أن نبدأ حياتنا بدخول معركة الاعتذار والتبرؤ من تلك الأطروحات. نعم.. قد تكون أطروحاتنا في بعض جزئياتها تطويرًا لأطروحات السابقين، لكنها في النهاية تعتبر الأطروحة رقم واحد بالنسبة لنا. فلا يوجد لدينا رصيد من الأطروحات الفاشلة يحاسبنا الآخرون عليه. وهذا ما أعنيه بـ « صفر الأطروحات ».

ولنبدأ من صفر الفواتير المطلوب سدادها، فأي منطق يقول بدفع فواتير كهرباء لم نشعلها؟! ومياه لم نشربها؟! ولنبدأ من صفر العلاقات، فليس بالضرورة أن حلفاء آبائنا هم حلفاؤنا، أو خصومهم هم خصومنا، فلكل مشروع حلفاء وخصوم، ومشاريعنا سيكون لها خصوم بدورها، ولسنا في حاجة إلى أن نصنع بأيدينا تحالفًا يضم خصوم الآباء وخصومنا، فلنؤسس علاقاتنا على قواعد جديدة.

والبداية من الصفر لا تعني بالضرورة هجر كل أطروحات وعلاقات السابقين، لكنها تعني حرية الاختيار، اختيار الأفكار والحلفاء والخصوم، في ضوء فهم جديد للواقع ومتطلباته.

فالبداية من الصفر تعني البدء من الخبرة التاريخية

لأطروحات وممارسات السابقين، مستفيدين من نجاحاتهم وإخفاقاتهم، إننا سنبدأ من الصفر من حيث تأسيس بنائنا من جديد، وهو بناء قد يختلف شكلًا ونوعًا عمَّا أسسه السابقون، لكننا في نفس الوقت نبدأ من القمة التي وصلت إليها أفكار ومشاريع من سبقونا، أي إننا نبدأ من « صفر القمة ». من آخر نقطة في قمة التجربة البشرية، وأول خطوة في تحركنا نحن.

ويجب الانتباه إلى أن الاستمرار في مشروع تراكمت فواتيره وعداواته - رغم وجود فوائد له - لا يعني التغلب على خرافة « البداية من الصفر »، ففي الوقت الذي تعتب فيه على مشاريع جديدة تنطلق من الصفر؛ ستجد نفسك في مشروع ضخم أنهى رحلته وفي طريقه إلى الصفر. فكِّر مليًّا.. أليس هذا المشروع الذي تخشى هجره قد بدأ أيضًا من الصفر يومًا ما، وكانت هذه الجدة هي سر حيويته وانجذاب الناس إليه؟!

إن البداية من « صفر القمة » تعني البداية بدون تاريخ مؤلم، مستحضرًا في وعيك تاريخ من سبقك، دون أن يكون في ملف سيارتك مخالفات إشارات لم تكسرها، أو زيادة في سرعة لم تتجاوزها، أو مداعبة أحد المشاة لتطرحه قتيلًا بمقدمة سيارة لم تركبها، فلستَ مضطرًّا لتحمل تبعات ممارسات غيرك؛ لأنك ستخلق علاقاتك الجديدة مع العالم

المحيط بك، وستكون مسؤولًا فقط عن طريقة قيادتك، عن فكرك وطرحك وممارستك.

والبداية من «صفر القمة» تعني تسطير تجربة جديدة قد تزيد درجة قوة المجتمع، وتسجيل قصة نجاح تضاف إلى ذاكرته التاريخية، ومحاولة أخرى لاكتشاف أداة جديدة لتطويره. فالمجتمع في ظل أدواته السائدة معروف مصيره، فماذا لو أضيفت له تلك الأداة الجديدة التي ربما ترتقي به؟!

أحيانًا يكون البدء من القديم ممكنًا، لكن عندما يصيب العطل محرك السيارة إضافة إلى تحمل فواتير المخالفات والأقساط الباهظة؛ حينها تصبح السيارة الجديدة « Zero » أكثر فاعلية(١).

إن المجتمعات الحية تحسن توليد المشاريع، وتحتفي بكل مولود جديد يبدأ حبوه من الصفر، مقدمة له خبرتها في المشي والعدو بصدر رحب، فخورة بهذه الوفرة في رصيد تجاربها، فالمجتمع يدرك مدى استفادته من الجهد الذي يبذله أصحاب المشاريع الجديدة، الذين يكتشفون الطرق الجديدة، التي لا يلبث كل المجتمع أن يستعملها. ثم يُشَيِّد النابهون من بعدهم مسارات أخرى جديدة يهدونها

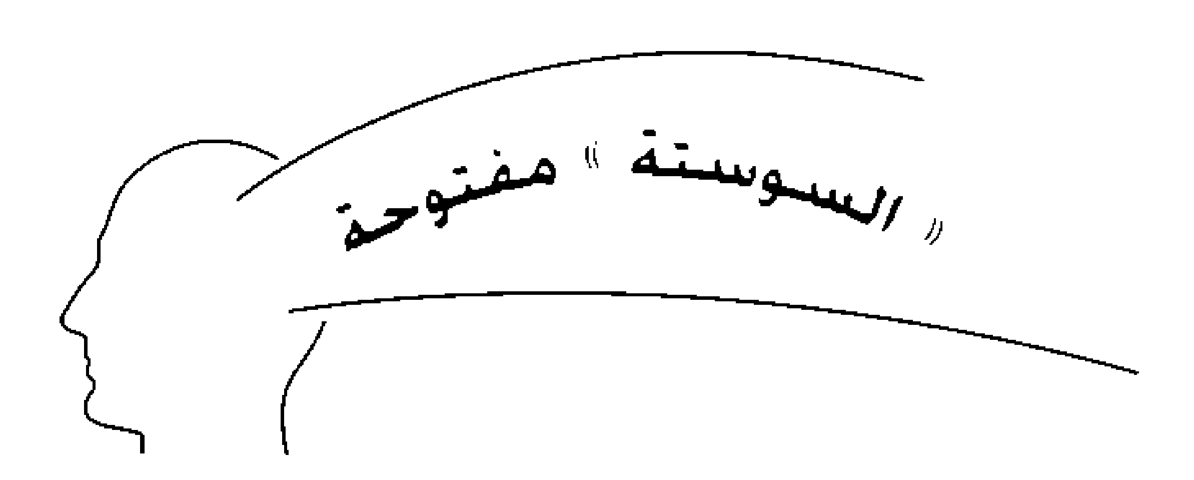
---

(١) ذكرنا في موضوع « ماذا نفعل بالسيارة؟ » في كتاب « نزيف العقول » - زلزال العقول (٢)؛ أننا نكتشف أحيانًا عدم حاجتنا ابتداءً إلى سيارة، فهي ليست بالضرورة الوسيلة الصالحة للذهاب إلى كل مكان، أحيانًا نحتاج إلى وسائل أخرى تقلنا، فلا ينبغي أن يعمينا التعلق بوسيلة بعينها عن البحث عن وسيلة أعلى كفاءة.

للمجتمع، معلنين أن مشاريعهم ليست إلا أدوات خادمة له.

وهناك مجتمعات ابتليت بأناس يتحدون مستقبلهم، يجيدون عرقلة أنفسهم بنصب الفخاخ للمشاريع المجاورة، فهم أشبه بأولاد يلعبون الكرة في الشارع، فإذا ما أوشك الهدف أن يصيب مرماهم ركلوا الأحجار التي تحدد المرمى، وإذا سمعوا عن ولادة مشروع جديد دارت أعينهم من الخوف، ثم وجهوا نداءاتهم إلى أتباعهم في كل مكان... «عرقلووه» !!

* * *



احذر الأخطاء القاتلة

كان يلبس أفخر الثياب.. « بذلة » في غاية الأناقة، وحذاءً براقًا، وربطة عنق منسجمة مع ألوان ثيابه... أما عطره فكان

جذابًا بحق... لكنه لم يجذبني مثلما جذب انتباهي عيب بادٍ في مقدمة بنطاله.. همست في أذنه: «السوستة» مفتوحة..

تغير لون الرجل.. شكرني معبرًا إياي ابتسامة قصيرة سقطت أرضًا قبل أن تصلني.. بدأ يتلفت يمينًا وشمالًا... تُرى هل رآني أحد غيره؟؟!!... هذا هو السؤال الذي كان يُزعجه.

بدأ يرفع «السوستة» وقد أقنع نفسه أن أحدًا من المتسوقين في المحل لم يلحظ الأمر، وها هو الارتياح يعيد تلوين وجهه باحثًا عن لون جلده الطبيعي، إلى أن تجمد فجأة عند اللون الأحمر! لقد كُسرت «السوستة» في يده دون قصد، بعد أن كادت تغلق منفذ الإزعاج لديه، تداعى العرق على وجهه، أمسك «السوستة» المكسورة وهو ينظر إليها في ذهول، فهو لا يصدق ما حدث... بدأ يتلفت حوله، يا لها من لحظات عصيبة!! فمنزله يقابل المحل، لكنه يشعر أنه يبعد مسافات طويلة، قرر أن يبدأ رحلة الهروب من أعين الناس إلى البيت، أيقظ إحدى المجلات النائمة على الرفوف منتزعًا إياها، وأمسكها بيديه ليغطي موضع «السوستة»، حتى لا يحملق فيه شخص فضولي.

كم أزعج هذا العطل الفني في «السوستة» صاحبنا الأنيق، لقد جعله يغير مسار رحلته ليطير إلى البيت؛ لأنه يدرك أننا نضطر أحيانًا إلى ترك كل الإيجابيات والنظر

فقط إلى السلبيات، حتى وإن قلَّ عددها الكمي؛ لأن التأثير النوعي أشد وأبقى؛ فالحائط الأنيق إن لوَّثَته بقعة الدهان ننعته بـ « الحائط المبقع »، ولا أظن أننا نتساهل مع العامل المهمل إن قال: « انظروا إلى النصف الملآن من الكوب »، ربما صببنا هذا النصف على رأسه حينها!!

وكلما ازدادت الفخامة زادت حساسيتنا ووعينا بالقصور. فقد ترى متسولًا في الشارع فلا تبالي كثيرًا إن كان ثوبه يتلحف بالتراب، لكنك عندما ترى شخصًا أنيقًا سيلفت انتباهك زر مفقود في قميصه، أو خيط شارد عن نسيج « بذلته ». فما بالك إن كانت « السوستة مفتوحة »؟!

حينها ستلفت الانتباه رغم أنف صاحبها، وتتلاشى صورة الأناقة رغم أنه لم يغير ثيابه، وستختفي رائحة عطره الساحر رغم أنك استنشقته منذ لحظات، لقد اختزلت قوته في نقطة ضعفه، وأناقته في إهماله « السوستة »، وإذا استمر حاله هكذا يومًا بعد يوم فلن يصفه الناس في حديثهم بـ « الرجل الأنيق »؛ بل سيلمزونه « أبو سوستة مفتوحة »!!

وكلما ارتقت المؤسسات والمشاريع في المجتمع، وكلما تألقت وتأنقت؛ تكون في أشد الحاجة إلى التأكد من أن « السوستة » محكمة الإغلاق، مدركة أن بعض العيوب يُغتفر، وبعضها قاتل. بعضها يمر مرور الكرام، وبعضها يحملق الناس فيه.

وكلما ازدادت الأناقة في الأهداف عظمت حساسية الناس تجاه القصور في بلوغها، ووعي الناس بهذه الفلسفة ضروري جدًّا حتى لا يُخدعوا بعطر نفاذ يطارد الهواء النقي، وربطة عنق قد تخنق أحلامهم.

والمؤسسات الواعية تدرك بدورها أن الجمهور لا يتغاضى عن كل الأخطاء بسهولة. ولا يتعامل مع الإيجابيات والسلبيات بلغة الحساب والأرقام، وبصره ليس بالضرورة موجهًا إلى ربطة العنق، بل أحيانًا أسفل من ذلك بكثير. فالمجتمع الحضاري يأبى أن تسير المشاريع والأفكار في طرقاته و« السوستة مفتوحة ».

والأحزاب والحكومات التي تبذل جهودًا لجذب الجمهور، ولا تزيده تلك الجهود إلا صدودًا وسخرية؛ عليها أن تتأمل حالها قبل أن تتعجب من زهد الجماهير فيها... ربما تكون « السوستة مفتوحة ».

أما الأمم التي تكالبت عليها أمم أخرى وصارت موضع إغراء لها فعليها أن تنتبه، ولا تتصور أن الحل في عتاب الخصوم.. « السوستة مفتوحة »..

وعندما يراودك شعور أن ثمة خطأ موجود، لكنك لا تدري ما هو؛ فلا تتجاهل شعورك، وابحث عن الخطأ بكل ما أوتيت من عقل، ولا تغرنك الإيجابيات؛ لأنك قد تكتشف

أن الثياب في غاية الروعة... لكن « السوستة مفتوحة »!!

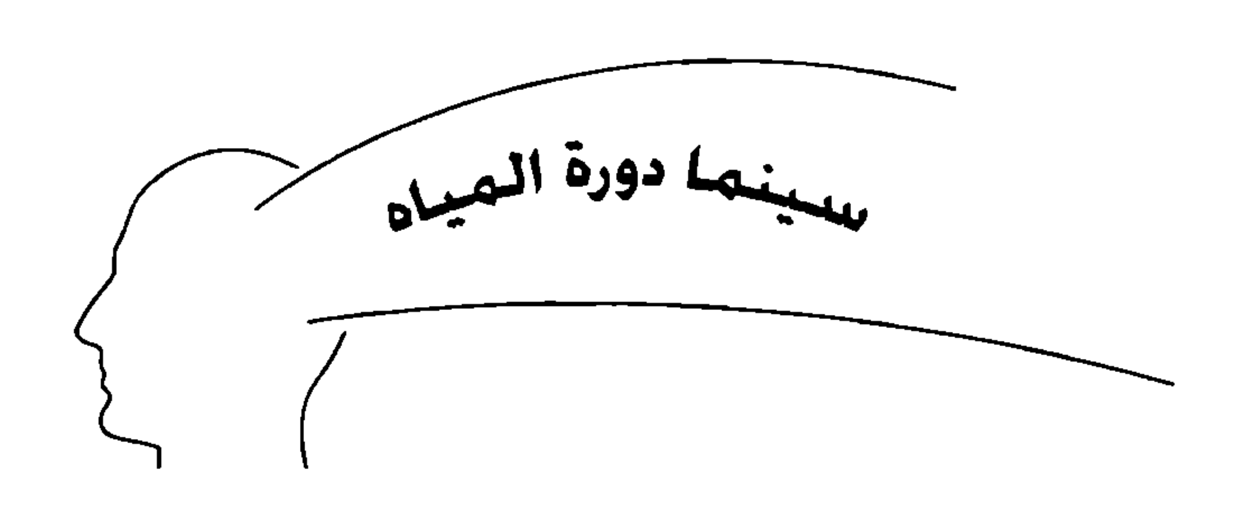
ولن تحتاج بعد اليوم أن تتكلم كثيرًا، فإذا وجدت في مديرك المتعالي عيبًا قاتلًا، فليرفع كل موظف على مكتبه لافتة « السوستة مفتوحة ». وإذا قررت ترك وظيفتك في شركة كبيرة ولامك زميلك على تهورك وفقدانك المزايا؛ فحسبك أن تقول: « يا عمي .. السوستة مفتوحة ». وإذا ما يئس شعب من الأخطاء القاتلة لحكومته؛ فلترفع الحشود الملتهبة لافتات « السوستة مفتوحة ». وإذا ما ضاقت البشرية بتجار الدمار الذين يتزينون ببهرجة قشور الحضارة؛ فليهب بنو الإنسان في أرجاء الأرض هاتفين: « السوستة مفتوحاااااااااااااااة ».

إلى كل صاحب « سوستة مفتوحة »... اركض يمينًا أو شمالًا.. اشغل الناس بصوتك العالي... تحدث عن رحلاتك البطولية وكفاحك من أجل شراء ملابسك الأنيقة... لكن اعلم بعد كل ذلك أن المشكلة لم تُحل.. « السوستة مفتوحة ».

قد يتشنج صاحب « السوستة المفتوحة »، صارخًا في العيون الناقدة، داعيًا إياها إلى النظر بموضوعية، إلى القميص، « البذلة »، ربطة العنق، الساعة. ولكن يبدو أنه كلما ازداد حماسه في توجيه الناس إلى النظر في اتجاهات أخرى - دون أن يغلق « السوستة »؛ كلما وجدوا مبررًا

لتثبيت عيونهم! متسائلين في دهشة بعد أن يَقْلِبوا رؤوسهم..
من أين يفكر ذلك الرجل؟!

* * *



☜ المشروع الأساس والمشاريع الداعمة

مضى زمن طويل على الإعلان... « قريبًا تُفتتح سينما الأحلام »... كنت كلما مررت أمام موقع السينما أتلمس خبرًا أو تسريبًا عن فيلم سيُعرَض قريبًا... لكن دون جدوى. أما عزائي فكان استمتاعي بـ« الفيشار ».

فقد جهزت إدارة السينما المكان تجهيزًا جيدًا، فهنا يباع « الفيشار » اللذيذ الذي لا يُقاوَم، وبجواره توجد دورة المياه الفخمة.

مرَّ عام وإذ بي أجدني أمام السينما... لأرى أفواجًا هائلة من البشر... قلت في نفسي: لا شك أن فيلمًا رائعًا سيُعرض الآن، لكنني وجدت الأفواج متكدسة أمام دورة المياه العامة وبائع « الفيشار »، أما السينما فقد كانت مهجورة الأنوار خاوية من الأفلام.

كنت قد سمعت أن صاحب مشروع السينما أحد رجال الأعمال الذين يحملون رسالة تنوير في المجتمع، لكنني

لا أدري.. ما الذي حدث؟ هل تحول مشروع التنوير إلى مشروع تنفيس في دورة مياه؟!

أسرعت إلى مكتبي لأكتب مقالًا عن مشروع « سينما دورة المياه »، وبعد أن نُشر المقال إذا بصاحب المشروع يتصل بي ساخطًا، قال لي: لقد ظلمتني بقلمك اللاذع. سألته أن يهدأ ويكمل حديثه، أجابني أن مشروع السينما ليس مشروعًا تنويريًّا فقط، فهو أيضًا مشروع تسلية ومشروع راحة نفسية، وقد حققنا هدف التسلية من خلال « الفيشار »، وهدف الراحة النفسية بقضاء حاجات الناس في دورات المياه، ولا يمكن شطب المشروع كاملًا لمجرد أن السينما لم تعمل، ثم استطرد قائلًا: هل تعلم أننا حصلنا على جائزة أفضل دورة مياه عامة على مستوى القُطر؟؟ هل تعلم أن عدد الوافدين إلينا يزداد يومًا بعد يوم؟ هل تعلم كم نُنَفِّس من كربات المارة الذين يجدون في دورة المياه ملاذًا لهم كما يجد الظمآن في الصحراء بئر ماء؟!

قلت له: هل تعلم أن كلامك مؤثر جدًّا؟؟. وهل تعلم أنني ازددت يقينًا بما كتبت في المقال؟!

أحيانًا تضيع البوصلة لدى أصحاب المشاريع، وينشغلون بالمشروع الفرعي عن الأصلي، بالمشروع الداعم عن المشروع الأساس، فقد كان هذا المشروع مُصَمَّمًا من أجل عمل تنويري فني، إلا أن المشروع الداعم طغى،

فصار الهدف إدخال الأطعمة في البطون، وإخراج عشرات الأطنان من منتجات الصرف الصحي.



وأصحاب المشاريع النابهون يحذرون السقوط في فخ المشاريع الداعمة، فإذا وقفت أمام بائع « الفيشار » وسألته ما إنجازك؟ فأجابك أنه أحضر الوقود لإشعال النار، وجلب الحبوب لصنع « الفيشار »، حينها ستعتبره مخبولًا، فهذه أنشطة ليست مطلوبة لذاتها، وإنجازه الحقيقي هو بيع « الفيشار » وإسعاد الناس. وأغلب المشاريع تحيط بها حزمة من المشاريع والأنشطة الداعمة، ولا يمكن اعتبارها إنجازًا في حد ذاتها؛ فضلًا عن أن تتحول إلى وسيلة عرقلة لتقدم المشروع الأساس.

فقد كثر عدد مرتادي دورة المياه وآكلي « الفيشار» بشكل يعرقل وصول المستفسرين عن الفيلم المفقود إلى مقر إدارة السينما، ولو كان كل مشروع داعم يعمل على حدة لفسدت المشاريع ولطغى بعضها على بعض، فالمشاريع الداعمة لا يمكن فهمها إلا في سياق المشروع الأساس،

فجمهور مشروع « فيشار » فحسب سيختلف عن جمهور مشروع « دورة مياه » فحسب، ومشروع « دورة المياه » مقترنًا بمشروع « الفيشار » يكتسب معنى آخر في ظل وجود السينما، ففي هذه الحالة سيكون الجمهور المراد هو عاشق السينما، وليس آكل « الفيشار ». إن المشروع الأساس هو الذي يُكسب المشاريع الداعمة معنًى ومبررًا للوجود، ويقرر حدودها حتى لا تتغول عليه.

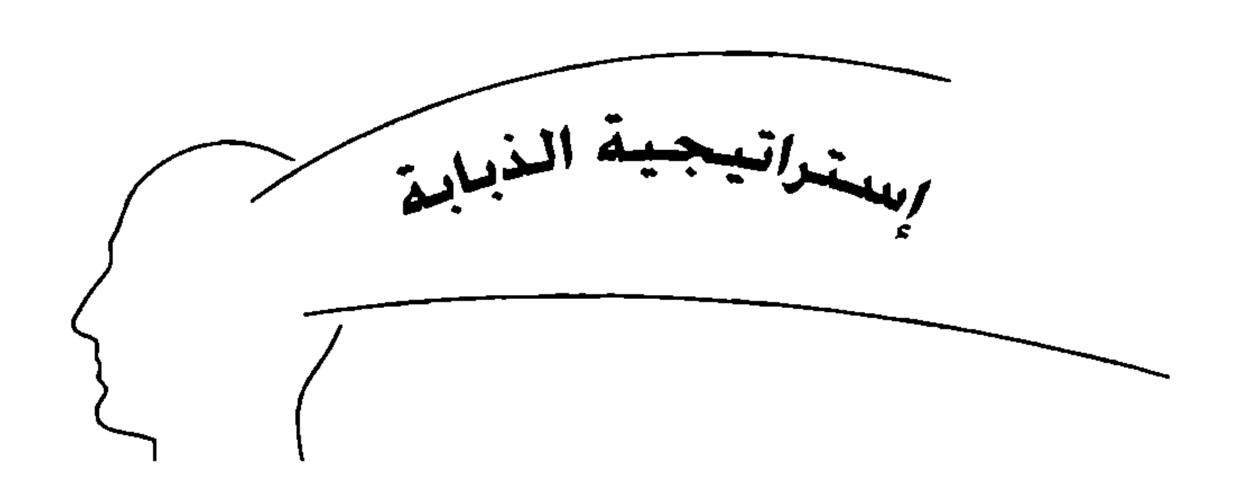
لذلك لا يُعقل أن يحتج صاحب السينما بأن مشروعه ليس سينما فقط، إنه سينما و« فيشار » ودورة مياه. فهذا النمط من الإجابة يعكس هروبًا من إجابة السؤال، والمؤسسات الجادة لا تحدد أهدافًا زئبقية، كلما سألتها عن مدى نجاحها في هدف تجيبك أن ليس هذا هو الهدف الوحيد، نحن لدينا هدف ثانٍ، فإن سألتها عن الثاني تحيلك إلى الثالث، وهكذا تتقاذفك الأهداف. إن تمييز الهدف الأساس من الداعم يعني إمكان التقييم والتقويم بالنسبة لأصحاب المؤسسة والراصدين لنشاطها.

قلت لصاحب المشروع.. طالما أن الأهداف تتساوى عندك؛ لم لا تسميه مشروع « دورة المياه »؟! فأنت تؤمن أن السينما ليست الهدف وحدها، فليكن مشروع « دورة المياه»، والسينما خادمة له.. واسأل أي عامل في مشروعك عن الهدف، سيخبرك بعد أن يسد أنفه بيده: نقضي حوائج الناس ونخفف عنهم.

ربما قضى صاحب المشروع وقتًا طويلًا في التجهيز لبيع « الفيشار »، وترتيب دورة المياه، وكل هذا لا يشفع له، لقد تحول رجل الأعمال صاحب الرؤية الفنية التنويرية إلى بائع « فيشار ». أظن أن عنوان مقالي في نقده لم يكن متجنيًا... « متى سيبدأ العرض؟؟ ».

في اليوم التالي رأيت طفلًا صغيرًا يخرج من دورة المياه الفخمة، بعد أن أكل « الفيشار » اللذيذ، سألَتْه أمه بصرامة... هل قضيت حاجتك؟؟ علمت من إجابته أنه ابن صاحب المشروع، فقد تنهد مجيبًا: لا.. لكنني قمت بعمل عظيم، فقد أرخيت الحزام وأرسلت السروال!!

***



☜ فلتنتزع طمأنينة المجتمع

- انطلقت الفتاة فجأة ودفعت اللص؛ فالتفت إليها مغضبًا.. هرول وراءها ثم أمسك بها وأوجعها ضربًا.. أخرج شفرة حادة شق بها وجهها الناعم؛ لتكون عبرة لمن تُسَوِّل له نفسه فعلًا مشابهًا، هوت الفتاة على الأرض بعد أن صرختْ صرخة مدوية.

التف الناس حولها - بعد أن هرب اللص - حملوها ليذهبوا بها إلى مشفى قريب لتضميد جراحها، وما دروا أنهم يزيدون من طعناتهم لها بتلك العبارات التي تفوهت بها ألسنتهم، « لماذا تفعلين في نفسك كل ذلك؟ »، « هذا مجرم لا قِبَل للكِ به... لم تضيعين مستقبلك؟! »، لم يكونوا أقل إجرامًا من ذلك اللص، ولم تكن شفراتهم أقل حدة؛ بل كانت أكثر فتكًا، فقد رشقوها في قلب الفتاة؛ ليميتوا فيها الضمير.

كان زميلي أحد هؤلاء الخطباء المفوهين الذين أثخنوها بمزيد من الجراح، سألته أن يتمهل ويتوب عن جريمته؛ لكنني اكتشفت أن هذه الخُطب العصماء كانت ضرورية بالنسبة لهم، فقد كان كل فرد يخاطب نفسه ليبرر لها قعودها بصوت مسموع.

لقد زعزعت هذه الفتاة طمأنينة الضمير لدى الجموع الواقفة، فحتى ذلك الذي ينعتها بالتهور خالفت قسمات وجهه ثرثرة شفتيه، لم يكن مشفقًا عليها بقدر ما كان يشعر بتأنيب الضمير، كونه لم يحرك ساكنًا. حقًّا فلتحيا الذبابة!!

استمر زميلي في محاولة تهدئة ضميره بعبارات يسمعني إياها، فأخذ يتحدث عن فشل الفتاة في تحقيق أي هدف؛ فهي لم تمسك باللص، وخسرت جمالها. فما جدوى ما قامت به؟!

قلت له: صحيح، لقد أخطأت الفتاة، كان عليها قبل أن تتخذ ذلك القرار الفوري أن تقضي أيامًا في تفكر عميق، ثم تأتي ومعها الحبال الغلاظ التي ستقيد بها اللص، ومن المهم أيضًا أن تأتي بمقاعد مريحة ليجلس عليها أمثالك من المشاهدين حتى لا تتعبهم أقدامهم، ويستمتعوا بالمشاهدة. أمَّا المشروبات الغازية والتسالي فليأت بها كل متفرج على حدة. وفي النهاية ... تحيا الذبابة!!

إذا نجحت الفتاة في استرداد ما سرقه اللص سيعتبرها

المجتمع بطلة عظيمة، وسيحتفي بها سعيدًا كأنه هو صاحب الإنجاز، ثم يعود يمارس حياته بشكل طبيعي دون أن يشعر بالأرق كونه لم يفعل شيئًا، لقد تحول إلى لص كبير يسرق الإنجازات، ويحتال لينال راحة البال. أمَّا إن أخفقت الفتاة في مهمتها - التي كان يفترض أن تقوم بها الجموع - سينتاب الجمهور ألم نفسي كلما تذكر المشهد. أي إن العقوبة المباشرة التي وجهها اللص للفتاة هي سبب تكدير صفو ضمائرنا، فلولا الصرخة، والوجه الدامي، لما حُفر المشهد في ذاكرتنا. ولما شعرنا بأنه كان يفترض علينا أن نفعل شيئًا..

بدأتُ أشعر أن الفتاة كانت مدركة أنها لن تنال من اللص؛ لكنها ستنال منا، لم تكن تقاوم اللص، بل كانت تقاوم صمتنا، لم تكن تطارد اللص، بل كانت تطارد ضمائرنا التي اختبأت داخل أحشائنا هاربة من أداء دورها. وربما كان ذلك هو هدفها.

إنني على يقين أن الفتاة أقضت مضاجع ضمائر الجموع الواقفة، وأنهم قبل أن يضعوا رؤوسهم على وسائدهم ليلًا سيزورهم المشهد بتفاصيله من جديد، وستصبح تلك الفتاة قصة وأسطورة تغشى مجالس من رأوا الحادثة. أسطورة الذبابة!!

خفتت حدتي تجاه صاحبي؛ فالناس - وأنا واحد منهم -

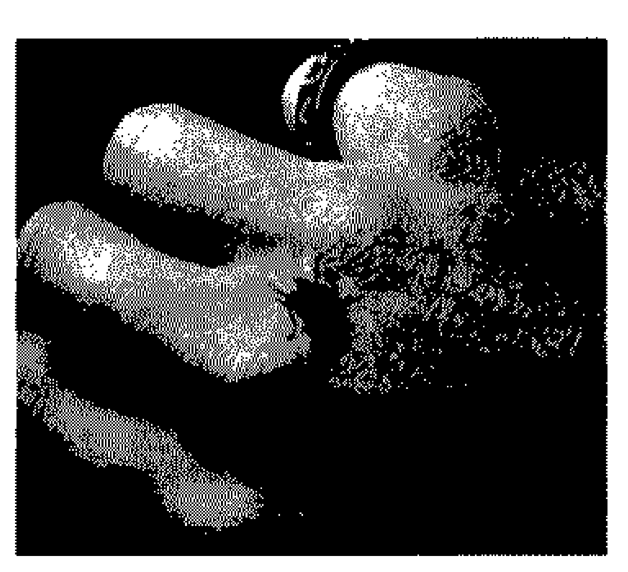
كنا نفتقد الأدوات الفعالة للمقاومة، فأنَّى لشخص مثلي أن يواجه لصًّا مسلحًا. إنني حتى لا أعرف كيف أنتزع سكينه من يده بحيث لا يؤذي أحدًا.

أدركت أن الرغبة في مواجهة الظلم لم تكن تنقصنا، ولكنها القدرة على تحقيق هذه الرغبة؛ فاللص زود رغبته في السرقة بسلاح يحسنه، أما نحن فرغباتنا كانت مجردة من كل سلاح. ولم يكن سلاح الفتاة سوى القوة النفسية الهائلة؛ وهي وحدها لا تكفي لوأد الظلم، لكنها كفيلة بإثبات آدميتنا.

إننا عندما نقاوم الظلم كأفراد فإننا نستعيد آدميتنا، كَخَلْق مُكَرَّم يأبى الظلم. ولا تسعى مقاومة الظلم إلى التخلص من المستبدين فحسب؛ بل تسعى أيضًا إلى إيقاظ الضمائر، إلى انتزاع الطمأنينة الاجتماعية الزائفة، وتفتيت وهم الشعور بالرضا، وصفع مبررات الرضوخ للواقع داخل كل فرد؛ أي أن مقاومة الظلم في النهاية تكدر صفو المجتمع إن أراد أن يغض الطرف عن الظلم، متخليًا عن أحلامه ومتجاهلًا واجباته. فأكرِم بالذبابة!!

إن المقاومة سلوك، نابع من بشريتك كإنسان؛ فهو واجب فردي به تكتمل إنسانًا، سواء عاونك الناس أم خذلوك، فإن عاونوك فربما تقهر الظلم، وإن خذلوك فحسبك أنك قاومت الظلم الأكبر... ظلم الجموع الصامتة.

وعليك أن تبدع في إيجاد الوسائل التي تؤرق بها بال كل مستكين مسترخ. **فإن رأيت ظلمًا في أي مكان فقاومه ولو كنت وحدك، في بيتك، في عملك، في مدينتك، في بلدك، في العالم. ولا تفكر دائمًا بمنطق هل سيزول الظلم؟ لأنك إن لم تستطع وحدك إزالة الظلم، فإن واجبك يتحول إلى مقاومة ظلم أولئك الصامتين الذين كان عليهم أن يشاركوك المعركة. فلا بأس أن تغير اتجاه المعركة لتعلن خوض** معركة زلزلة الضمائر، **حين تقتحم أمام الملأ وحدك بصدرك العاري، وقبضتك المشدودة. حينها ستتحول إلى عملاق، يشعر من حوله أنهم أقزام.** فيا لها من ذبابة!!



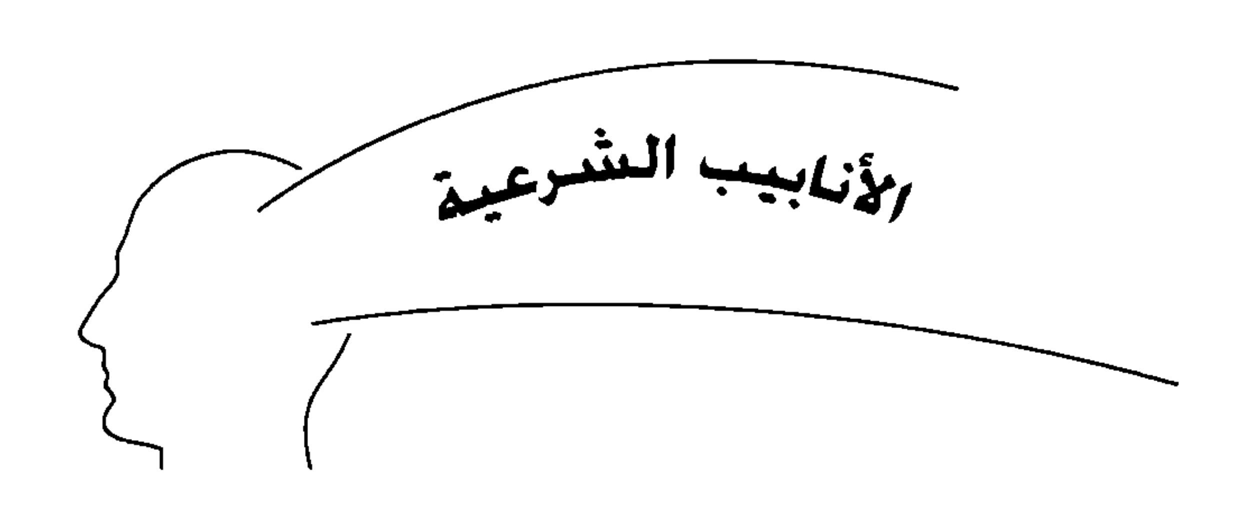
وكلما اكتشفتَ وسيلة أقرب للنجاح في مقاومة الظلم، **أثر ذلك بإيجابية على الجموع من حولك لتؤمن بإمكانية الفعل؛ إنك حينها تزود رغبتهم بالقدرة، وتذكر أن رسالتك الرئيسة هي أن تثبت لنفسك أولًا أنك إنسان سوي، ثم تقض مضاجع الضمائر النائمة، ولتتفنن في ذلك كيفما استطعت، فأنت حتمًا المنتصر.**

ألست أقوى من الذبابة؟!

- اتجهت مع زميلي إلى أقرب مطعم.. حضر الطعام الشهي، إلَّا أن زميلي قضى معظم وقته في محاولة طرد تلك الذبابة المزعجة، وإقناعها أن أنفه ليس المهبط الخاص بها، أخذ يصرفها عن طعامه دون جدوى.. تململ وأبدى نفوره؛ فقد قطعت عليه لذة الطعام، أخبرْتُه أنها تكمل تلقينه درس الفتاة لتقض مضجعه، وإن كان قد تمكن من الهروب بضميره أمام سلوك الفتاة؛ فلن يتمكن من الإفلات من تلك الذبابة، قلت له: إننا في حاجة إلى آلاف الذباب الذي يغشى طنينه كل مكان، وكيف لا وقد كان سقراط يرى أثينا كحصان كسول، ويعتبر نفسه الذبابة التي تحاول إيقاظها وإبقاءها حية!![1].

***

(١) لا يتعارض هذا المعنى مع التخطيط والعمل المدروس للانتصار المباشر على الظلم، لكنه يتناول فقط درجة من درجات المقاومة التي يصبح ما دونها أقرب للاستسلام. فقد لا يتمكن المقاوم أحيانًا إلَّا من اللجوء إلى هذه الدرجة من الفعل (إستراتيجية الذبابة)، الذي يهدف إلى خلق حوار داخل كل نفس صامتة وهي تشاهد الظلم. وربما يكون هذا المستوى في حد ذاته هدفًا لبعض مقاومي الظلم، الذين يضعون نصب أعينهم تعليم المجتمع مقاومة الظلم الآني بما هو متاح.



☜ حوار بين الشرعية والمشروعية

ذهبت إلى « المكوجي » كي أتسلم ملابسي، قال لي متأسفًا: أعتذر سيدي لقد أُحرقتْ ملابسك؛ سألته: وما العمل إذن؟ قال لي: اتصل بهذا الرقم سيرد عليك المدير... اطلب منه تعويضًا ماليًّا..

اتصلت بالرقم فرَدَّ عليَّ الرجل بأدب... طلب مني أن آتي إلى المحل في اليوم التالي لآخذ مبلغًا اتفقنا عليه. أتيت في الموعد... سألت « المكوجي » عن المبلغ، أجابني أن المدير لم يأتِ بعد، ولم يترك شيئًا؛ عليَّ إذن أن أحاول الاتصال بالمدير مرة أخرى عبر الهاتف.

استمرت المحاولات حوالي خمس مرات، في كل مرة أذهب إلى « المكوجي » ثم أكلم المدير، لكن دون جدوى.. حتى إنه في المرة السادسة لم يرد.

قررت ألا أسلك الطريق الذي حدده هو لي، طريق الذهاب إلى « المكوجي »، ثم الاتصال الهاتفي. فعليَّ أن

أعمل بطريقتي أنا، وطالما أن المدير يريد أن يلعب معي « استغماية » أو « غميضة » - أيًّا كانت لهجته - فسأضع له قواعد اللعبة.

علقت لوحة قماشية في مدخل الشارع... « المكوجي الذي في نهاية الشارع حرامي... لا تتعاملوا معه... للمزيد من التفاصيل اتصل بي على الرقم التالي »... ثم كتبت رقم هاتفي موقنًا أن المدير سيتصل بي إن رأى اللوحة.. وقد كان!!

لقد وضع صاحب المحل قانونه بإحكام ليضمن كل شيء إلَّا حصول الزبائن على حقوقهم، وأختار قناة شرعية - بل أنبوبة - أطالب من خلالها بحقي؛ وهي الذهاب إلى محله ثم الاتصال الهاتفي به... أدركت مبكرًا أن استعمال قانونه في انتزاع حقي أمر عبثي؛ لأنه من صنع الخصم، والقنوات الشرعية من نحته، يجب التفكير إذن في بدائل أخرى، واكتشاف قوانين جديدة لم تُكتب بعد.

فالقوانين موجودة قبل أن تُكتب، وعملية الكتابة ليست إلَّا اكتشافًا، ثم تدوينًا صريحًا لقوانين تحكم الحياة؛ أليست قوانين فيزياء الكون موجودة قبل أن يكتشفها العلماء ثم يدونوها؟! وعندما نسنن القانون الخطأ؛ نكون بذلك قد أخفقنا في اكتشاف قانون الحياة المختبئ داخلها.

وعندما يمسك خصومنا بمقاليد صناعة القانون؛ يجب

أن ننتبه ولا نسقط في فخ الالتزام المطلق بما نحتوه، فثمة قوانين أخرى لم يسجلوها، ودورنا أن نكتشف هذه القوانين ونسعى بكل وسيلة لتدوينها.

وللقوانين المسجلة أصناف؛ فمنها ما هو عادل تام، ومنها ما هو ناقص يتطلب إتمامًا، ومنها ما هو جائر، ويُدرج قانون الاتصال الهاتفي بالمدير في الصنف الثاني؛ فهو ليس قانونًا سيئًا، لكنه يحتاج إلى من يُتِم صياغته، وكل ما فعلتُه أنني أكملت صياغة نص القانون قائلًا: « إذا لم يتجاوب المدير مع الاتصال علق لوحة في الشارع كي تفضحه ».

إن دور المجتمع تجاه القوانين؛ هو الامتثال للقوانين العادلة التامة، واستكمال صياغة القوانين العادلة الناقصة لتصبح فعالة، وخرق القوانين الظالمة. وعندما نخرق قانونًا ظالمًا فإننا بذلك نكتشف قانونًا آخر، إننا نكتب فوق القانون الجائر قانونًا جديدًا بخط أكثر وضوحًا؛ فقانون الخرق هو ممحاة القوانين الجائرة. فالقانون الظالم يقول: « احصل على حقك من خلال مسارات يحددها خصمك »، والقانون المكتَشف الذي ستدونه هو: « احصل على حقك من خلال مسارات فعالة تختارها أنت ».

وإذا كان مسارك المختار بدوره جائرًا، حينها يجب اكتشاف القانون الذي يمحوه؛ ليُدوَّن بدلًا منه، المهم هو عدم الرضوخ للقانون الجائر بحجة أنه هو القانون المدوَّن

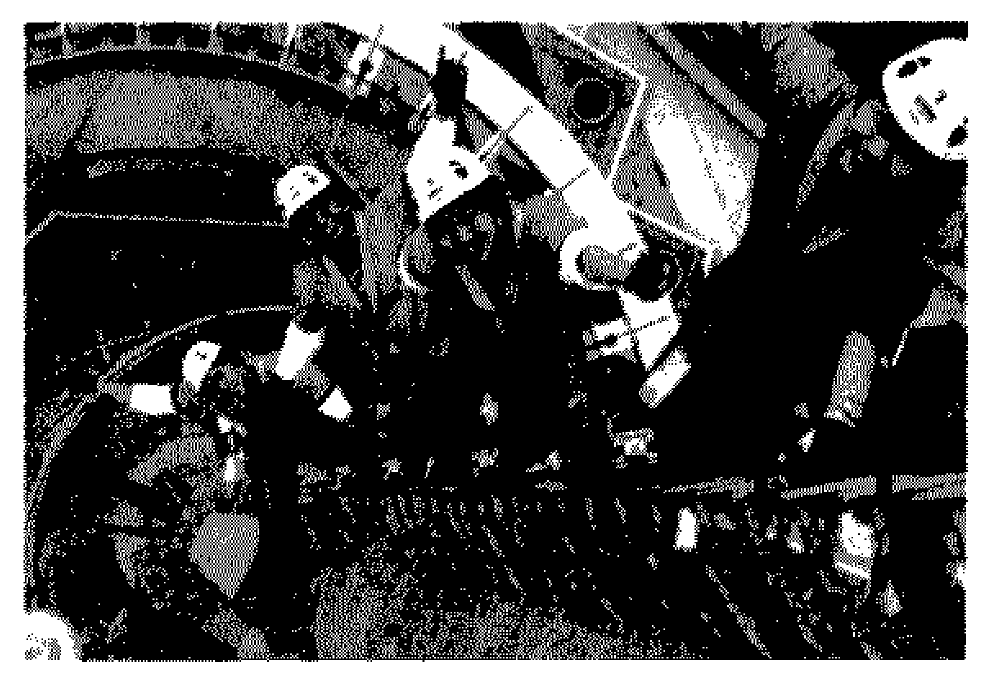
إن الفرق بين التدوين واللا تدوين، بين قانونهم وقانونك، يمكن أن نطلق عليه: الفرق بين « الشرعية » و« المشروعية »، فالقانون المكتوب من قبل المدير يعبر عن «الشرعية»، فمن التزم به قد التزم الطرق الشرعية، أمَّا القانون الذي ستكتشفه أنت فيعبر عن المشروعية، مشروعية أن تقاوم الظلم؛ فخرق القانون الظالم عمل مشروع إنسانيًا لكنه ليس شرعيًا وفق القانون المكتوب. لكنك بكثرة الخروقات للشرعية الظالمة تكون قد بدأت محاولة كتابة قانون جديد، وتأسيس شرعية جديدة، ويوم أن تستكمل كتابة القانون الخارق - بالقول والفعل - سيكتسب الخرق « المشروع » صفة « الشرعية ».

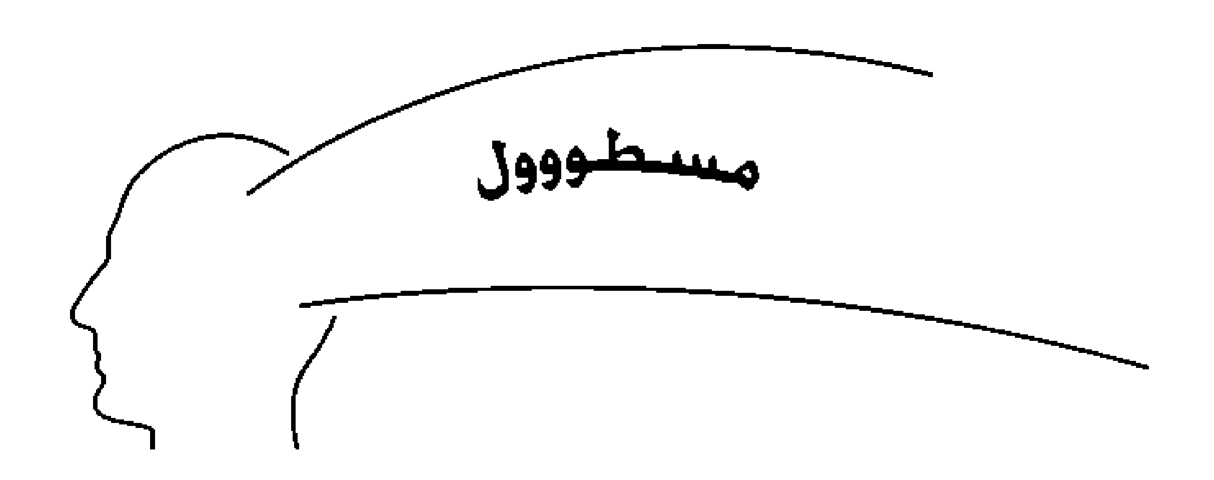
كان بعض المطالبين بحقوقهم المسلوبة من ضحايا محل كَيِّ الثياب يرددون.. « سنلتزم بالقنوات الشرعية مهما تكن الظروف »؛ وعبثًا حاولت إقناعهم أن القناة يجب أن تكون فعالة؛ إذ ليست العبرة بمجرد وجود قناة، ماذا لو كان الخصم قد سدَّ هذه القنوات ففقدت فاعليتها؟! ماذا لو لم يرد على الهاتف؟! أليس البقاء داخل الأنابيب الشرعية يكرِّس الظلم؟؟!!

لكنني لاحظت بعد حوار طويل أن البعض تروقهم هذه الأنابيب الشرعية؛ فهي تحدد حركتهم وتجعلهم يعملون في إطار تقليدي قد اعتادوه. كما توهمهم أنهم يفعلون شيئًا ذا قيمة، خاصة عندما يحني المرء ظهره، وينبطح في

قاع الأنبوبة محاولًا تسلق جدارها بعزيمة وحماس، وكلما ارتفع في التسلق نادى في الجماهير خارج الأنبوبة الشرعية لعلها تستجيب وتلتحق بموكب الصعود، وكم تسوؤه حالة اللامبالاة ممن هم خارج الأنبوبة، لكنه يصرُّ على استكمال الطريق ولو ظل وحيدًا. فيستمر في تسلق جدار الأنبوبة، وما إن يكاد يصل إلى فوهتها حتى يجد نفسه يطفو على بحر من العرق؛ فيزداد إحساسه بالمسؤولية، وبعظم الجهد المبذول، فينادي فيمن معه في الأنبوبة، ها قد اقترب الفرج، وعندما يلامس سقف الأنبوبة تبدأ المهمة الأصعب؛ وهي فتح الغطاء، لكنه يفاجأ أن الغطاء مفتوح، وما إن يرفعه حتى تلفحه رياح عاتية تسقطه ومن معه في قاع الأنبوبة من جديد.

فقد وضع مدير محل كيِّ الثياب يده في جيبه، ثم أخرج المحفظة، ثم فتحها، ثم أخرج منها الأنبوبة الشفافة، ثم نزع غطاءها، ثم نفث في مناضلي الأنابيب الشرعية نذرًا من هواء الزفير!!





☜ **لن يوقفك سواك**



بينما هو يترنح في الطريق، ويردد كلمات غير مفهومة من فرط سُكْرِه؛ إذا به يصطدم فجأة بعمود على الرصيف... شُجَّتْ رأسه؛ فأخذ يكيل السباب إلى العمود..

عاد إلى الخلف عدة خطوات بعد أن رفع القارورة بيمينه، وألقى في جوفه المزيد من الخمر... تقدم للأمام بحذر وكله

إصرار على الترنح؛ فاصطدم بالعمود ثانيةً... خلع قميصه ومزقه من شدة الغضب، وأخذ يكيل سيل العبارات النابية إلى العمود.

تراجع مرة أخرى عدة خطوات إلى الخلف... ثم تقدم للأمام بصدره العاري؛ فأحسن التصويب في هذه المرة أيضًا واصطدم بالعمود.

تجمع الناس حوله في محاولة لمساعدته، لكن الكبرياء منعه، كان كل ما يتمناه من الواقفين أن يشتركوا معه في سبِّ العمود الذي يمنع المارة من العبور.

لم يكن هذا هو المسطول المخمور الوحيد؛ فكم من عقل مغيب يظن أن أحدًا من البشر يمكن أن يعرقل مسيرته، ويوقف تقدمه، فيردد عبارات من قبيل .. « ماذا نفعل؟ إنهم يمنعوننا؟؟ إنهم لا يريدون لنا أن نتقدم؟؟ ألا لعنة اللَّه عليهم! ».

ويخيل إليَّ أن المسطول كان يرى العمود واضعًا يده في خصره، يقف على الرصيف في ثبات متوعدًا إياه: « فَلْتَمُر إن استطعت ».. وربما كان التركيز على هذه الفكرة هو سبب اصطدامه به كل مرة.

وددتُ لو سألْتُه.. كيف استطاع العمود أن يوهمك أنه قادر على منعك؟! ولماذا لم تتمكن من إقناعه أنك قادر على استئصاله من فوق الرصيف؟! أو ضربه في ركبته

ليحني ظهره الشامخ، أو تصويب حجر نحو رأسه ليفقأ عينه المنيرة؛ فصراع المسطول مع العمود صراع إرادات واختبار هيمنة كل منهما على عقل الآخر.

الفرق بين هذا المسطول وبقية المارة؛ هو نفس الفرق بين المفعول به والفاعل، فالمارة يعرفون أن العمود عقبة، لكنهم يدركون أكثر أنه لن يحول بينهم وبين هدفهم بحال من الأحوال، قد يخطئون ويصطدمون به مرة، لكنهم يعلمون أن لديهم خيارات أخرى سوى خلع القميص والتراجع إلى الوراء، وتكرار المواجهة بنفس الطريقة؛ فبإمكانهم تفادي العمود أو النزول من على الرصيف وإكمال السير..

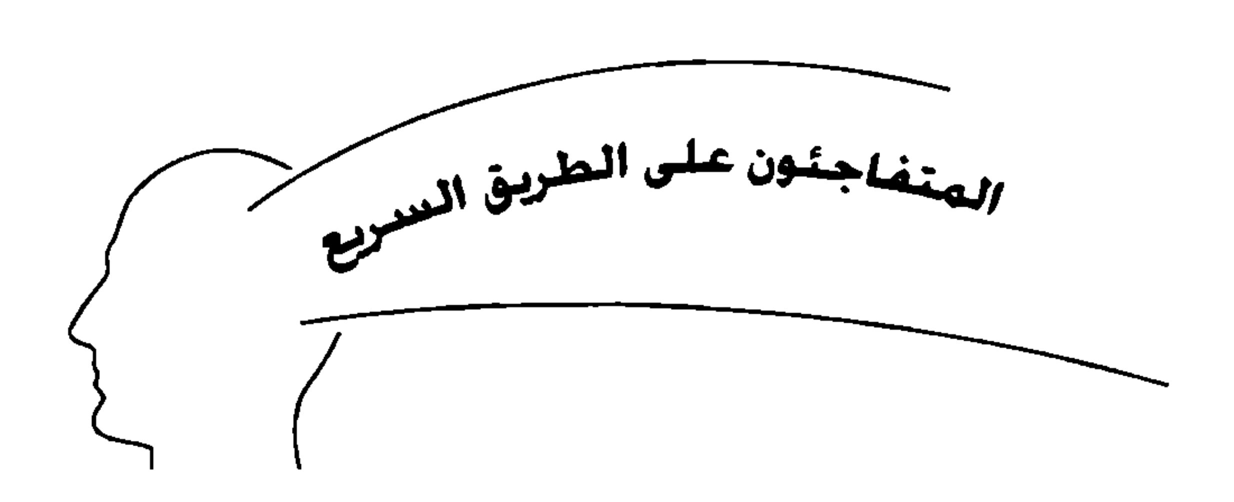
وليت الأمر يتوقف عند هذا الحد؛ فالمسطول سيُعَلِّم أبناءه من بعده أن العمود عدو مبين، وهاكم الدليل التاريخي.. قميص ممزق ورأس دام.. هل هناك دليل أوضح من ذلك؟!.. وهذه هي الطريقة الفعالة لتفريخ أجيال من المساطيل. وإن استمر الحال هكذا ستعبد الأجيال أعمدة الإنارة، تخافها وترجوها؛ وهذا أحد أسباب تحويل التافهين إلى أصنام، يطوف حولها المساطيل مرددين أذكارهم على أوتار مسابحهم...« سيمنعونني .. سيمنعونني.. سيمنعونني ».

وأقولها شهادة أمام التاريخ، ليس العمود هو من أذهب عقل المسطول؛ فقارورة الخمر كانت خياره وحده. وهي التي قادت تفكيره، حتى إنه بدأ يفكر... إن تمكنتُ من

المرور وتفاديتُ هذا العمود؛ فماذا أفعل في كتيبة الأعمدة المتراصة خلفه على طول الطريق؟! إنه يشعر بالحصار الكبير، فالأعمدة تحتل المدينة لتعرقله!! وليس له من الأمر شيء.. فيا لتعاسة الحظ!

سمعت تصفيق الناس فاستعدت انتباهي.. لقد تراجع المسطول للمرة العاشرة إلى الوراء... ثم تقدم للأمام، لكنه في هذه المرة تمكن من تفادي العمود.. سعدتُ ثم حزنتُ.. أسعدني أنه حرَّر عقله وتمكن من المرور، وأحزنتني كلمته، فقد نظر خلفه قائلًا للعمود: « أشكرك أنك أصغيتَ لندائي وتنحيتَ عن الطريق »!!

***



كـي لا تتكـرر الأزمـة

صراخ وبكاء وعويل يرج الفضاء... حالة من الوجوم غلفت وجوه سكان القرية؛ فقد قُتل مسعود ريحانة القرية، ذلك الطفل الذي لم يتجاوز العشر سنوات... لم تكن الفاجعة الأولى؛ وبالتأكيد لن تكون الأخيرة، فطريق السفر السريع تجتاحه السيارات بسرعة تفوق الوصف، والأطفال يضطرون إلى عبوره كي يصلوا إلى مدرستهم.

في نهاية العزاء اجتمع أهل القرية، يتزعمهم ذلك الشاب الذي يدرس في المدينة، وكان قد عاد للتوِّ من الجامعة.

سألهم: متى كان آخر حادث على الطريق السريع؟

أجابوه: منذ أسبوع تقريبًا.

نهرهم وقد ضاق ذرعًا بهم؛ وماذا فعلتم من أسبوع حتى اليوم بعد أن بكيتم آخر مصاب ونصبتم له سرادق العزاء؟ منذ عقود وأنتم تشاهدون هذه المأساة تتكرر.. فهل تتوقعون

أن تتغير قوانين السير على الطريق من تلقاء نفسها؟!

توقفتُ بعد هذا المشهد عن متابعة فيلم: « المتفاجئون على الطريق السريع »...أغلقت التلفاز، ثم شرعت في الكتابة.

أحيانًا تتعرض المجتمعات لأزمات مفاجئة، وتدفع تكلفة المفاجأة لعدم استعدادها، كأن تعجز عن إنقاذ طفل فرمته سيارة مسرعة، ولا بأس في تَفَهُّم ذلك إن كانت الأزمة تقتحم بوابات المجتمع لأول مرة؛ لكن ما يميز مجتمعًا عن آخر هو مدى جديته في التفكير بعد الأزمة في إضافة معطيات جديدة للطريق، كي لا يتكرر الأمر بعد أسبوع. فإذا أردتَ اختبار جدية أي مجتمع في سعيه نحو التطور؛ فانظر إلى ملامح وطبيعة الطريق السريع لديه قبل وبعد الأزمة.

فالمجتمعات العابثة تصرخ « ما الحل؟ » أثناء الأزمة « المتكررة المفاجئة ». ولا تبدأ التفكير في إنقاذ ضحاياها إلَّا حين تكون السيارة على بُعد نصف متر منهم، وقد سنت أسنانها توشك أن تبتلعهم؛ فهي مجتمعات تعتمد « الفهلوة » منهجًا. تريد نجاحًا بلا مذاكرة، واغتصاب الجنة بلا عمل. تدفع الطفل إلى الطريق، ثم تختبئ خلف جفنها مغمضة عينها، تخال أنها بذلك أطفأت النور كي لا يُرى الصغير، عبثًا تظن أن الطريق اختفى من الوجود لمجرد أنها أطبقت جفنيها؛ فالظلام لا يخيم إلَّا عليها، أما السيارات فلا تزال مفتوحة العينين تحملق في الطفل متوعدة.

فجأة يندلع الصراخ... ويتباعد الجفنان من جديد ليدخل النور وتُبصَر الحقيقة.. الصغير يلفظ الروح.. والمعجزة لم تحدث.. فالطريق لم يبتلع السيارات!! إنها إذن خيانة الطريق!!

أمَّا المجتمعات القوية فتتعلم من الأزمة، وتعتبرها تحديًا دافعًا لتطورها، فتتعامل معها ابتداءً بحلول سريعة للحيلولة دون استفحال خطرها؛ محاوِلة إنقاذ الطفل بعد الحادث بكل ما أوتيت من جهد، لكنها تفكر بعد الأزمة في كيفية الحيلولة دون تكرارها، وتبدع وسائل التصدي لها إن حدثت.

وشباب هذه المجتمعات لا يدمن الأفكار الكحولية التي سرعان ما تتبخر في الجو؛ بل يسعى بعد الأزمة لخلق بنًى تحتية مناهِضة للأزمة ومتجذرة في المجتمع، بحيث تصبح جزءًا أساسيًّا من تكوينه لا عملًا طارئًا، ومصلًا فعالًا مستمرًّا، لا دواءً مُسَكِّنًا مؤقتًا، كتثبيت أعمدة إنارة راسخة في بنية المجتمع تنير الطريق، أو صناعة مطبات لعقلنة السيارات المجنونة، أو تثبيت إشارات تشير إلى وجود المدرسة، أو بناء جسر يعبر عليه المشاة، أو تكوين فرق مستعدة للإسعاف على طول الطريق؛ وهناك مئات السبل الممكنة إن أقسم العقل أن الأزمة لن تتكرر من جديد.

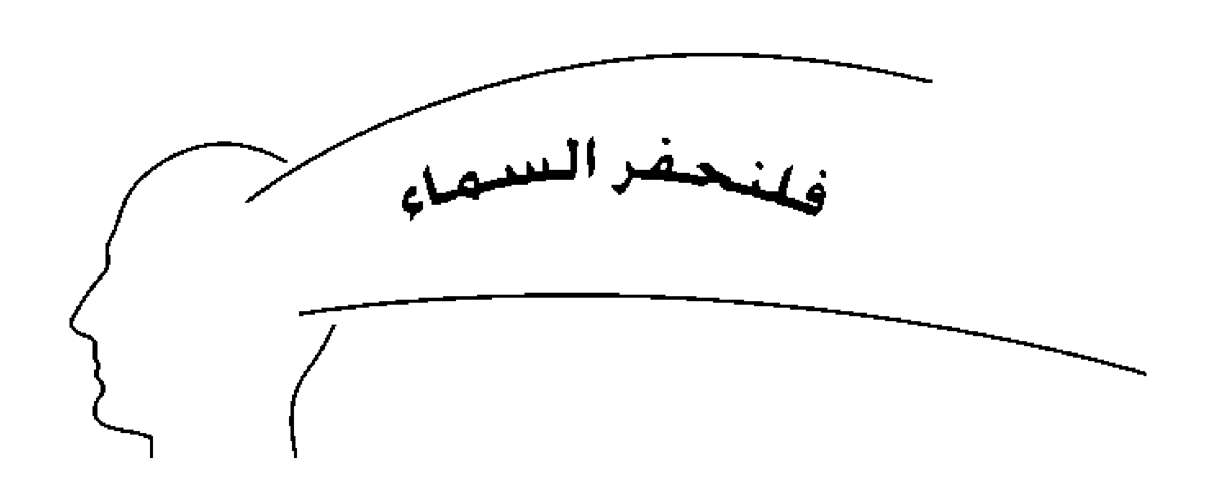
وعندما تحاول الأزمة مهاجمة مثل هذا المجتمع مرة أخرى؛ فإنها لا تلبث أن تتراجع؛ إذ تتوهم أنها ضلَّت الطريق، فمسرح الأحداث قد تغير تمامًا، والطرق تبدلت،

والمجتمع مستعد لمواجهة الأزمة بترسانة أسلحة من الأفكار، والمشاريع، والأمصال التي لا تخطر لها على بال.

وضعت قلمي على سفح ورقتي... فقد نفد الحبر أو ربما ملَّ من كلامي، كان آخر سطر كتبته موجَّهًا إلى أولئك المتفاجئين جاحظي العيون، الذين يعلنون كل يوم المفاجأة المذهلة؛ فقد اكتشفوا أخيرًا أنهم شرهون لتنفس الهواء، ويرتوون بعد تجرع الماء. ثم يتساءلون... لم لا يتغير الواقع؟! لم لا ننتصر؟! أخبرتهم أن اضطراب الواقع هو النتيجة الطبيعية لاضطراب أفكارهم وأفعالهم.. ثم دعوتهم إلى طرح السؤال بصيغة أذكى.. ما الذي يدعو الواقع للتغير؟ هل جملة أفكارهم وأفعالهم حقًّا تقود للانتصار؟! هل كان يفترض أن يعنو الواقع لها ويسجد خشوعًا أمامها؟! أم إنه يعلم يقينًا أنها أفكار وأفعال لا تضره ولا تنفعه!! فالواقع يحمل فأسه مع كل فاجعة تصيبنا؛ ليضرب أصنام أفكارنا ساخرًا: « اسألوهم إن كانوا ينطقون ».

عدت لمشاهدة الفيلم.. يبدو أنه أوشك على الانتهاء.. لكن ما هذا المنظر العجيب؟! السيارات تصطف بازدحام دون أية حركة تُذْكَر على الطريق السريع الذي التهم الطفل منذ دقائق.. معقول؟! إشارة مرور ضوئية حمراء على طريق السفر السريع؟! لقد لَقَّن أهلُ القرية السياراتِ الأدب.

***



أيا رسل التغيير ... وحي السماء يبحث عنكم



وجدت الطريق مليئًا بالحفريات... وهناك علامات دالة على أن فريقًا ينقب عن آثار في ذلك المكان. تعجبت من بقاء آثار أمم سابقة هنا إلى يومنا هذا.. قررت أن أرسل رسالة إلى الهيئة المختصة بالتنقيب عن الآثار... كتبت فيها... أيها السادة المحترمون... لماذا لا تحفرون السماء؟!

لا ينبغي أن تفزعنا الدعوة إلى « حفر السماء »؛ فعندما نشرع فيه لن يسقط تراب أو طوب على رؤوس المارة، لقد تجرأ أناس فثقبوا الأوزون في غفلة من جميع البشر!! ولولا الإعلام لما شعر أحد أن سماءنا مثقوبة؛ فبنية السماء تختلف عن بنية الأرض، وسكانها كذلك مختلفون.

فالسماء مسكن الروح والفكر، وهي الشاهد الأول على أفكار الأنبياء في رحلتها العظيمة من السماء إلى الأرض، وأزعم أننا إذا نقبنا في السماء بآلات متطورة ترصد مسار الفكر، سنعثر على آثار شاهدة على قصص التحولات الكبرى التي شهدتها البشرية حينما التقت الأرض بسكان السماء. فلطالما أمطرت السماء أفكارًا غيَّرت مسار التاريخ.

وأفكار التغيير صنفان:

صنف يبذل رجالاته الجهد في تحديد الهدف، والإجابة على الأسئلة الملحة التي تصوغ أجوبتها ملامح المستقبل، وعمود هذه الأسئلة: « ماذا نريد تحديدًا؟ ».

وصنف آخر إستراتيجي يرسم مسار بلوغ الهدف مجيبًا على سؤال: « كيف نصل إلى ما نريد؟ ».

وبتبلور رؤية واضحة حول الهدف والمسارات الممكنة؛ يكون بذلك وحي التغيير الملهم قد اكتمل، وآن له أن يتنزل، فثمة لحظة تاريخية فاصلة ستلتحم فيها السماء بالأرض، ويلتقي الوحي بالرسول.

والمفكرون والإستراتيجيون النابهون اليوم هم صنَّاع وحي التحولات، فهم الذين يلهمون الناس الفكرة المنقذة، ويزودونهم بأدوات تحقيقها؛ إنهم سكان سماء المجتمع، وعليهم ألا يقنعوا بالعيش في سمائهم واضعين أقدامهم فوق رؤوس أهل الأرض الذين تطحنهم المعاناة. فلينظروا إلى أهل الأرض؛ وليبحثوا بين هذا الخضم الهائل من البشر عن قادة المستقبل، عليهم أن يحفروا في كل شارع باحثين عن رسل التغيير الذين سيحملون وحيهم، أولئك الرسل الذين يتمتعون بقوة العزيمة، ويتملكهم الشعور بأن ثمة خطأ في العالم، لكنهم قد لا يحسنون تشخيص الداء، أو يحارون في صنع الدواء. غير أنهم يصعدون الغار بين الحين والآخر، يأنسون بحفرة في الجبل، وينظرون من عَلٍ إلى الأوضاع السائدة، يقلبون وجوههم في السماء علها تلهمهم حلًّا. ينظرون بحدة إلى الأفق محدثين ثقوبًا في السماء، عسى أن يختلسوا نظرة إلى المستقبل.

وفي تلك الأثناء تأتي اللحظة التاريخية، في تلك الليلة التي تضم فيها الفكرة القائد وتحتويه، تلك الليلة التي يرتج فيها الغار، ويُتوَّج فيها ساكن الغار رسولًا، فتتنزل عليه الإجابات؛ ويهتدي إلى الطريق الذي طالما بحث عنه، ويشعر مع كل ضمة من ضمات الفكر أن الخطب جلل، ويكتشف زيف الحلول الساذجة التي كان يتصور أنها ستغير

العالم؛ فيتمنى إثر الصدمة الأولى أن ليته ما فهم، ثم يهجر زمن النوم، نوم الفكر والجسد.

هما شخصان يبحث كل منهما عن الآخر، المفكر والقائد؛ فالمفكر حامل الهداية يبحث عن قادة التحولات، وقائد التغيير حامل العزيمة يبحث عن الفكرة المنقذة. وتجعل المجتمعات من ليلة اللقاء يوم عيد، وتتأخر عملية إحداث التحولات حين يضل كل منهما طريقه إلى الآخر؛ حين يفتقد الوحي الرسول، أو يفتقد الرسول الوحي(١).

لذلك ينبغي على المفكر أن يصدر في قائمة أولوياته توفير الأجوبة الممكنة على أسئلة الواقع، ثم البحث عن القادة الذين ينتظرون تلك الأفكار، القادرين على تحويلها إلى واقع مُشاهَد.

لكن أنَّى للمفكر أن يعثر على القائد المرتقب في هذا الخضم الواسع من البشر؟! فليس بالضرورة أن وجهاء القوم وصنَّاع القرار هم قادة التحولات، ولَكَم استثناهم الوحي ليختار شخصية أقل سلطانًا ونفوذًا، رغم أن تَنَزُّل الوحي عليهم قد يضمن حدوث التغيير بيسر؛ لذا فالمفكر لا يدري في أي غار يعتكف القائد، فربما كان شخصًا لا يؤبه له؛ لذلك فهو يرى أن كل شخص مرشح ليكون هو رائد التحولات

(١) أحيانًا يجتمع المفكر والقائد في شخصية واحدة تجيد التنظير والتنفيذ معًا، والحديث هنا عن علاقة المفكرين والإستراتيجيين بالقادة التنفيذيين.

المحتمل، قد تكون هذه الفتاة الشاردة المُطِلَّة من الشباك، وقد يكون ذلك الشاب على دراجته، قد يكون ذلك الطفل، وقد تكون تلك السيدة. عليه إذن أن ينشر أفكاره بكل اللغات حتى يصيب هدفه، بلغة الأطفال ولغة الكبار، بلغة عميقة علمية، وأخرى عميقة سهلة.

وإذا كنا نريد لأفكار المفكرين والإستراتيجيين أن تسري في كل مكان علَّها تصادف منقذًا؛ فإننا بحاجة إلى « مأسسة وحي التحولات »، أن تنتدب مؤسسات نفسها لفك شفرات المفكرين، وترجمتها إلى لغات متنوعة تشمل كل شرائح المجتمع الثقافية والعمرية.

والمؤسسات الإعلامية لها دور كبير حين ترعى المفكرين والإستراتيجيين وتقدمهم إلى الجمهور؛ فهناك شباب واعد يتلمس الطريق، صعد إلى الغار وقد حمل على ظهره حاسبه الشخصي، واتصل بالأقمار الصناعية ينقب في صفحات الإنترنت، همته ماضية وإصراره بادٍ، لا تنقصه سوى رؤية هدف معلوم، وطريق واضح، ويوم أن يصادف على شاشته مفكرًا يجيب على الأسئلة الجوهرية التي ترسم الهدف، ويبصر إستراتيجيًا عبقريًا يصمم طرق الخلاص للوصول إلى الهدف؛ حينها تكون اللحظة التاريخية قد حانت، ونقطة التحول قد دنت.

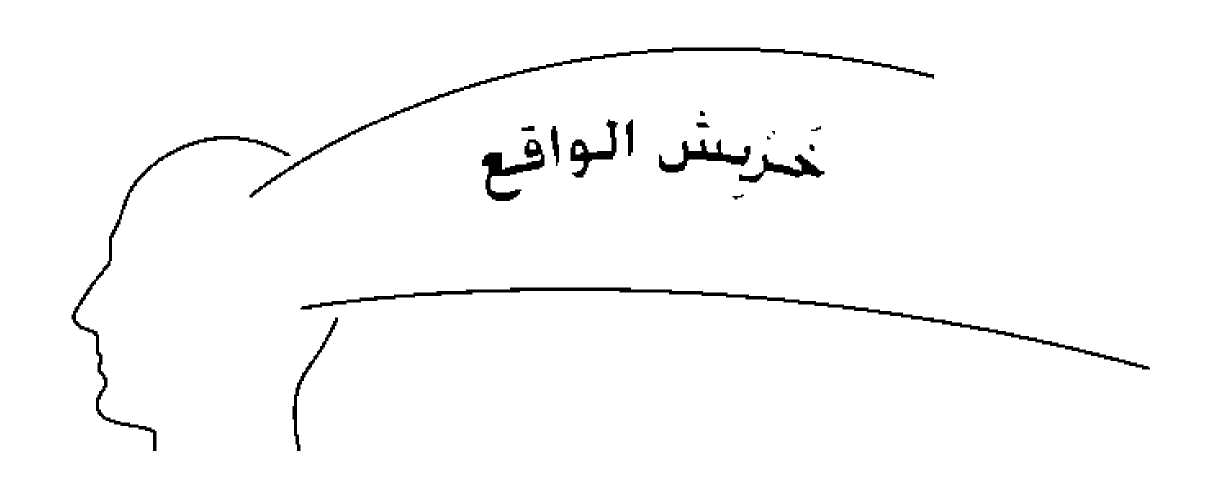
ليس السؤال الصحيح « متى يغادر المفكر مقعد التنظير

لينفذ أطروحاته؟ » فليس كل مفكر يجيد تنفيذ أفكاره، وليس مهندس الديكور الذي يحدد الألوان للعامل يحسن بالضرورة استعمال الفرشاة، وطلاء الجدران. لكن السؤال الذي تفتح إجابته بوابة التحولات هو.. متى يعانق الوحي الرسول؟؟؟ متى تلتقي الفكرة المنقذة بقادة التحولات؟؟

لن تعجز المجتمعات عن إنجاب قادة للتحولات؛ فإذا حفرنا ونقبنا في كل مكان في الأرض سنجد بذور قادة تنتظر ماء الفكر كي يهتز عودها، وسنلتقي حتمًا بأولئك الأفذاذ الذين يبعثون في الناس الأمل ويحشدونهم للفعل.

لكن من الممكن أن يفتر الوحي، وتغيب الفكرة؛ حينها علينا أن نبحث عن أهل الفكر... فلنحفر السماء، من أجل أن تأتي ليلة تعاد فيها صياغة قَدَر المجتمعات وقَدْرِها... وحتمًا ستكون خيرًا من ألف شهر.

* * *



بين التنظير والتنفيذ



فتحت علبة الجبن.. فإذا بي أجد بطاقة ممدة فوق قطع الجبن مكتوب عليها: «خربش هنا... إذا ظهر لك رقم (١٠) فقد ربحت دراجة»، أخذت قطعة نقود معدنية... وبدأتُ الخربشة. وانتقلتُ إلى عالم الخربشات.

ففي عالم الخربشات رأيت الرسام لا يرسم، ولكنه يخربش اللوحة حتى يتكشف الرسم من وراء لثام؛ فهو

قد يرسم في مخيلته لوحة ما، لكنه ما إن يمسك فرشاته ويخربش على لوحته؛ حتى يجد اللوحة تمنحه أفكارًا جديدة، فيرسم أجمل مما تخيل، وإن غَيَّر خامة اللوحة أو مكان الرسم سنجد أن المكان يلقنه صورة أخرى ليرسمها، إنه لا يرسم.. فقط يخربش لتتكشف الصورة المخبأة خلف اللوحة، كالنحات الذي يخربش الحجارة لا ليصنع التمثال؛ بل ليستخرج التمثال المختبئ داخل الحجر[1].

ولقانون نيوتن الثالث أيضًا قول؛ « فلكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه »، فعندما يمنح الرسام لوحته أول خط من فرشاته؛ فإنها ترد عليه بخط مماثل تقذفه في ذهنه ليرسمه، إنها تساعده ولا تنتظر أن ينهي اللوحة من وحي خياله المحض، فهي لن تتركه يفعل بها ما يشاء؛ بل هناك حوار مستمر يدور بين الرسام واللوحة البيضاء، ثم يتطور الحوار كلما أضاف خطًّا إلى اللوحة. فإذا رسم شجرة دار حوار بينه وبين اللوحة البيضاء والشجرة، وإذا أضاف إلى الرسم بحرًا؛ دار الحوار بينه وبين ما تبقى من اللوحة البيضاء والشجرة والبحر؛ فكل هؤلاء يتضافرون ليلهمونه.

ألست ترى الرسام ينظر بين الحين والآخر إلى ما رسم كلما أنهى جزءًا من لوحته؟! رافضًا أن يعمل كآلة نسخ تنقل

---

(١) فكرة اختباء التمثال داخل الحجر مقتبسة من كتاب: « في صالون العقاد كانت لنا أيام » للكاتب أنيس منصور.

الصورة حرفيًّا من العقل إلى اللوحة؟! نعم... إنه يتطلع إلى توجيهات اللوحة له!! تمامًا مثلما يفعل الروائي الذي تأتيه الفكرة؛ فيمسك الأوراق ويخربشها، ليتجلى له النص العبقري المخبأ في الأوراق.

إن التفكير المجرد وحده لا يغير الواقع، ولا يعطيك حكمًا صحيحًا عليه، فالتفكير الأولي يلهمك مسارًا مبدئيًّا تسير فيه، لكنك قد تطوره أو تغيره؛ لأن الواقع سيتكشف لك، بالضبط كما يحدث مع الروائي والرسام، يكفيك أن تُكَوِّن في عقلك صورة واضحة بدرجة مقبولة عما تعتزم فعله؛ لكن لا تتصور أن عقلك وحده هو الذي سيمنحك الصورة الصحيحة، فالاقتحام الحذِر للواقع مطلوب، وللواقع قول يُعتد به؛ لذلك يجب أن تخربشه لتختبر تصوراتك، فالتجربة ستمنحك الجزء الآخر غير المكتمل من الصورة. وكل خطوة تنفيذية ستقوم بها في الواقع؛ حتمًا سيتفاعل بعدها معك، ويرد عليك، فقط أَنْصِتْ إلى الواقع حين يتحاور معك!!

فالواقع الذي نشكو منه ليس أبكمًا؛ إنه واقع بليغ فصيح مشبع بالحلول المخبأة داخله؛ ويحتاج استنطاقه إلى خربشة مثل التي تقوم بها على كارت المسابقات في علبة الجبن.

ويبقى السؤال... أين أخربش تحديدًا؟؟ أين سأجد مكان الخربشة في هذا الواقع المتلاطم؟؟!!

إن التصور العقلي الأولي يعينك على تحديد مكان الخربشة المتوقع، لكنه ليس بالضرورة صحيحًا، وسيظل التحدي في اكتشاف المكان الصحيح الذي تخربش فيه الواقع، مما يجعل اللعبة أكثر إثارة؛ لأنك ستخربش على الأفراد المارين، فربما كان أحد المسؤولين يملك الحل، كما ستخربش على المؤسسات القائمة، لعل مع إحداها مفتاح الخلاص، أو ستخربش في مناطق الفراغ التي لم يسلكها أحد، لعلك تكتشف بوابة المستقبل.

ولا تظن أنك وحدك الذي تخربش، ولكن اختلس النظرات إلى من حَولك لتستفيد من تجاربهم؛ فهناك داخل علبة الجبن من يخربش بحماس بالغ، وربما أوشك أن يفوز بالدراجة. ولا بأس من أن تضم جهدك إلى جهده، وقد تكتشف أنه سقط في علبة الجبن الخطأ، فلتتوقف فورًا عن الخربشة، وأسرع بالهروب متسلقًا الجدار الكرتوني للعلبة قبل أن يُغلق سقفها عليك.

ومن المهم أن تحسن اختيار أداة الخربشة؛ فالنقود المعدنية أفضل من سكين حاد قد يكشط الصورة بأكملها، فلا تطعن الواقع بسكين؛ لأنك في أمسِّ الحاجة إلى حواره معك، فلو كشطت بطاقة المسابقة بقسوة وتلاشت الصورة، حينها تكون قد قطعت لسان الواقع قبل أن يعلن النتيجة، ولن تدري هل عليك أن تعيد المحاولة أم أنك ربحت؟!

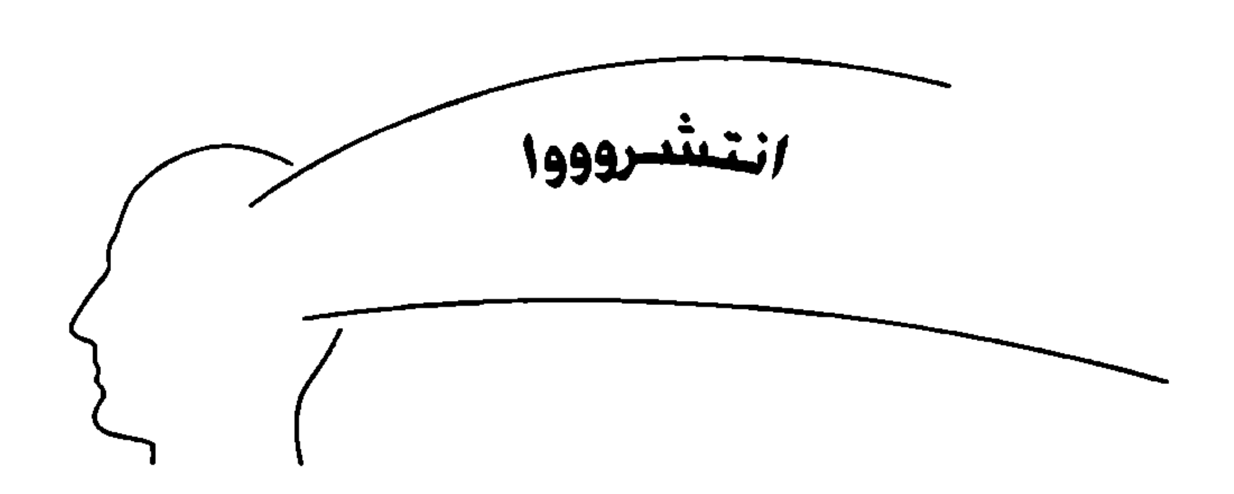
وإن كنت بالفعل ربحت فمن ذا الذي يصدقك؟؟!! لقد دمرت جائزتك قبل أن تستلمها!!

وكن مستعدًّا لدفع تكلفة أية خربشة حمقاء؛ كأن تمسك بمسؤول غير مسؤول لتخربشه، آملًا أن تجد على كفه صورة الدراجة التي ستقلك إلى المستقبل، ولا يخدعنك استسلامه لك وأنت تخربش كفه، فقد تتكشف لك الصورة شيئًا فشيئًا، فيبسم ثغرك؛ فها هي الألوان تتضح، وها هو الوشم يظهر، مبروك لقد ربحت بعد عناء.. نعم لقد ربحت... لكنها ليست صورة الدراجة... إنها عصا الشرطي!

وباعتناق مذهب الخربشة تتسارع وتيرة الخربشات في المجتمعات؛ ويهب الناس أفواجًا ليخربشوا في كل مكان بحثًا عن الدراجة، على الجدران، في الشوارع، في الماء، في الهواء، حتى إنك لا تكاد تنظر إلى ثقب في الأرض أو ثغرة في السماء؛ إلا وتجد خربشة.

لكن المحير أنه لا تبدو في الأفق أية دراجة؛ حينها سيدب اليأس في النفوس، إلا أنك دائمًا المنتبه المتفائل، فأمسك القطعة المعدنية، وخربش على جبينك، وانظر في المرآة لترى الدراجة مستقرة على جبهتك؛ لتخبرك أن الحل في عقلك... أن يعيد بناء التصور النظري من جديد. ثم يقتحم الواقع ليخربشه ثانية ليعثر على الحل.

***



☜ إستراتيجية البحث عن مخرج

- انتشلت بسرعة منديلًا ورقيًّا أجفف به سطح مكتبه بعد أن أطاحت يدي بكوب الشاي؛ وبينما أنا أعتدل في مقعدي إذا بي أطيح بالكوب الثاني ليسقط أرضًا، ويتفجر فيضان الشاي.. رآني مذهولًا فأخذ يهدئ من روعي مخبرًا إياي أن الخادم سيتولى الأمر. لم أكن مذهولًا لانكسار الكوب وتدفق الشاي. لم تدهشني سوى حركة الشاي على الأرض، كان الشاي يتشعب في مسارات لم أرها قط.. فقد ظننت الأرض مستوية. لا أدري أيهما أصح؟! هل شق الشاي الأرض شقًّا أم إنه مجرد كاشف لطبيعتها المليئة بالشقوق؟؟!! وهل مالت له الأرض خصيصًا أم إنها بطبيعتها مائلة؟؟!!

إن بقعة الشاي لا تسير عبثًا كما يبدو للوهلة الأولى، إنها تبحث عن أي طريق ممهد - صغر أو كبر- لتسلكه، ومن مزاياها أنها لا تستهين بأي شَق يمكن أن تنفذ منه؛ بل إن

سرعة السائل تزداد كلما ضاق المجرى الذي يتحرك فيه.

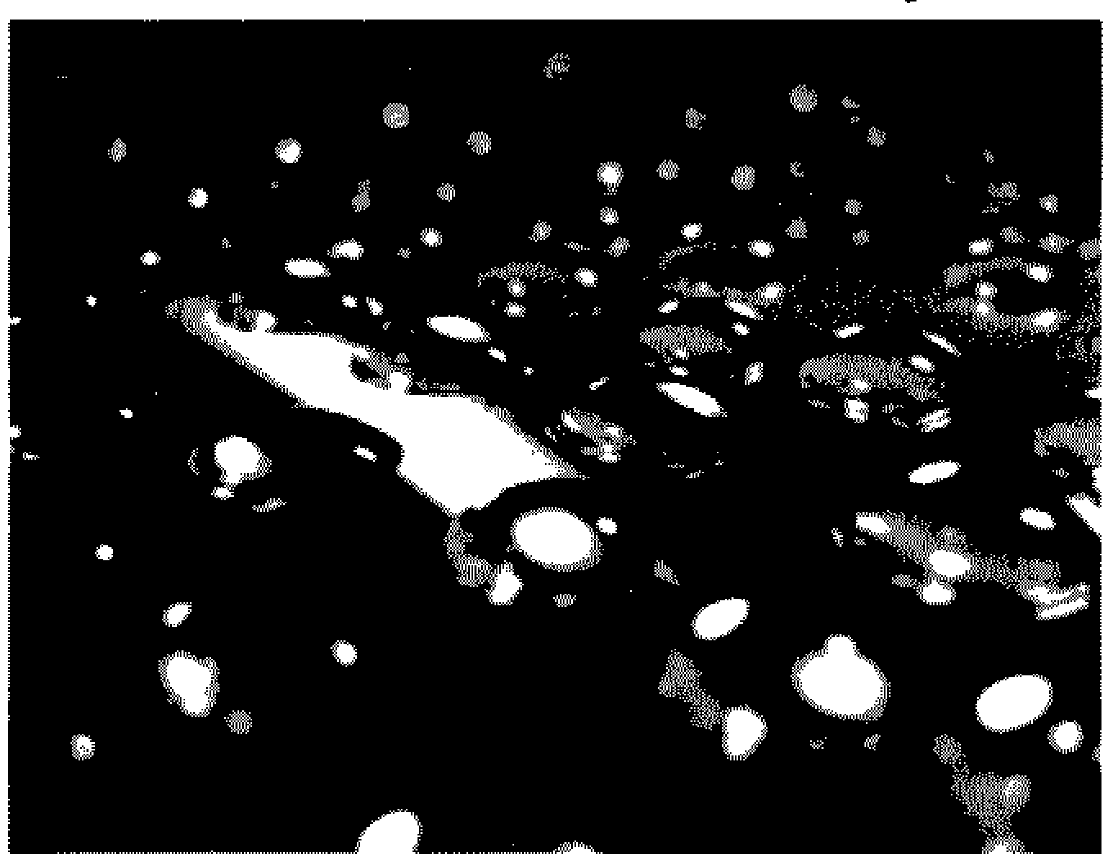
أعجبتني سرعة الشاي وبدأت أشجعه، وازددت إعجابًا به وهو يصِف الأرض؛ فالأرض حقًّا مائلة، وبها بعض الشقوق، وها هو الشاي يخترق الأرض؛ يبدو أن أشياء كثيرة نشهد عليها زورًا بأنها مصمتة لا يمكن اختراقها.

امتد خيط الشاي حتى وصل إلى الباب؛ كأنه يقول لي « من هنا ».

- سمعت صرخة سيدة؛ فتركت الشاي المسكوب لأفتح الباب الذي أشار إليه خط الشاي الحر من ثوان، إنها أم مكلومة تبحث عن طفلها التائه. التف الناس حولها لا يدرون من أين يبدأون البحث، وإلى أين يتجهون؟ تحركوا بشكل عفوي، كل في اتجاه قد اختاره، إنهم متحدون في الهدف؛ لكنهم موزعون يبحثون عن مسار صحيح لتحقيقه.

أدركتُ أنه حين يغيب تصور الحل؛ فإن إطلاق الطاقات لن يعني بالتأكيد توجيهها نحو سبيل يقيني معروف سلفًا، كل ما يمكن فعله هو التبشير بأن الحل قابع في ذات الواقع المراد تغييره، والمطلوب هو اكتشاف الممكن، وفهم طبيعة الأرض، فروح المرحلة هو: « البحث عن مخرج » لا « تحقيق المخرج »، عبر كسر الأواني التي تُحَجِّم السوائل عن الانطلاق؛ لتقوم بدورها في كشف طبيعة الأرض، وإطلاق الطاقات؛ لتكتشف السبل، وتسبر

أغوارها، وتشير إلى فرص كامنة في أماكن قد يعجز العقل عن التنبؤ بها. فها هي السوائل تنساب لاهثة وراء مخرج، ولو كان في شق صغير لا يؤبه له.



بدا لي أن مرحلة « البحث عن مخرج » لا تعتمد على البدء بتجمع مائي كبير يبدأ من نقطة واحدة يقينية؛ لأنه بذلك سيقيد طاقات أخرى مجبرًا إياها على السير معه في طريق محتمل وليس حتميًّا. لكنها تبدأ من نقاط محتملة؛ لتنتهي في نقطة أكيدة؛ أي أنها تبدأ من كل نقطة ممكنة، لتجتمع في النهاية حيث تم العثور على مخرج. إنها حركة الملهوفين الباحثين عن فؤاد الأم الشارد؛ بل حركة الطبيعة حين تعمل من تلقاء نفسها. ألست ترى بقعة الماء تتسع، تجاورها بقعة أخرى؛ ليلتحما في النهاية في بقعة واحدة كبيرة دون سابق اتفاق؟؟!!

ويوم أن تتحطم الأواني المعطِّلة للطاقات، وتُكسر أغلال العقل؛ لتنطلق المبادرات في شتى الاتجاهات؛ ستتضح خارطة الفعل، تلك الخارطة التي سيكتشفها المجتمع ذاته في وقت قياسي، بحسب تشكل حركة السوائل فيه، وبحسب شكل النقوش التي ستبوح بها الأرض، وبحسب المنافذ التي ستمكن من عبورها. إن التبعثر إستراتيجية فعالة لاكتشاف الممكن، والتجمع هو الخطوة اللاحقة التلقائية لتحقيقه. فقرار سكب الماء في كل مكان نفعله بمحض إرادتنا، أمَّا اتحاد البقع؛ فيتم تلقائيًّا إن توفرت شروطه الموضوعية.

كذلك ستتضح بتحرير الطاقات حقائق الأشياء؛ فها هي آنية ممتلئة بالعسل، ظاهرها حلو وشفاء، لكنها فور أن تنسكب أرضًا إذا بها بطيئة جدًّا إذا ما قورنت بالماء، قد يكون السبب في بطئها؛ كثافة الأيديولوجيا، أو القيادة المثقلة بالأحمال. لست أدري!!

كل الذي أدريه أن مرحلة تحرير الطاقات جوهرها كشف الفرص، وإمكانات الذات، من خلال اختبار مدى إمكان النفاذ من المسام وسرعته. وهذا الاختبار يتطلب مرونة ومغامرة؛ لذلك تقوم به بقع كثيرة العدد صغيرة الحجم، متنوعة في مصدرها، متفقة في هدفها، كل بقعة مسؤولة عن حماية ذاتها، وقد تندمج مع بقع أخرى مجاورة إن لزم الأمر. وإذا كان من الممكن لكوب ماء أن يقوم بالمهمة؛ فلا داعي

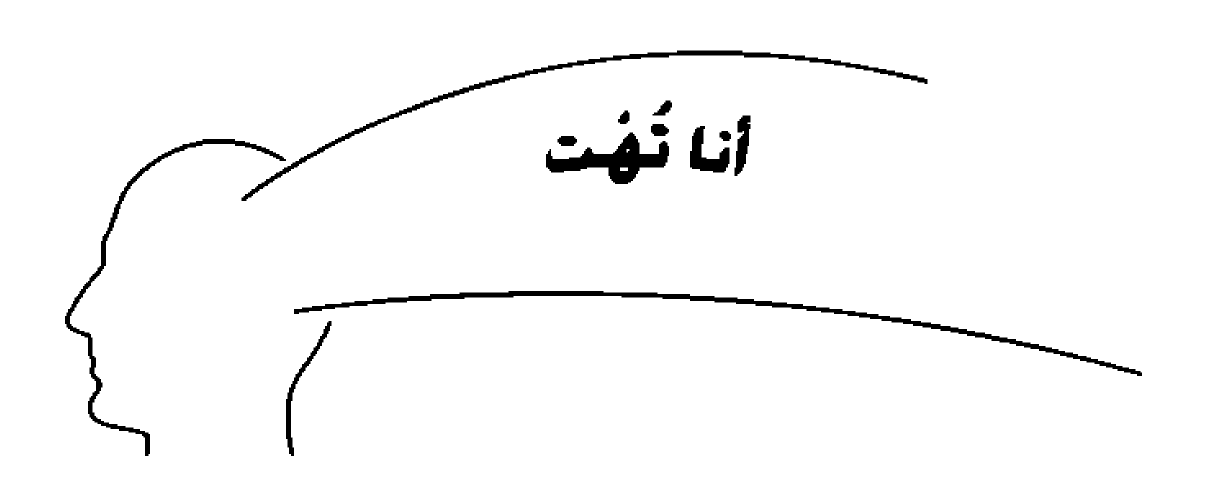
لسكب برميل كامل على الأرض في نفس المكان. خاصةً أن الإخفاق محتمل في بعض الأحيان.



والإخفاق في رحلة البحث والاكتشاف يمارس دورًا إيجابيًّا؛ فالمحاولات الفاشلة تهتف في بقية البقع.. « هنا طريق مسدود »؛ إنها تلك البقع التي لا يزول لونها، ولا تختفي لزوجتها من الأرض؛ لتصيح بصمتها: « انتبهوا فقد مررنا من هنا ». وعلى مواقع مرور تلك البقع الجسورة يجب أن تشيد النُّصب التذكارية؛ إذ إنها تقي تيار السوائل الدخول في المسارات الخطأ. كذلك تنبئنا حركة الطبيعة أن بعض القطرات ستمتصها الأرض فلا يُرى لها أثر، كلها ظواهر يجب ألا تسبب صدمة للناظر، أو تصيبه بهاجس التحكم والسيطرة.

فعملية « تحرير الطاقات » التي تهدف إلى « البحث عن مخرج » لا تعرف التحكم والسيطرة، حتى وإن كان هذا التحكم بحجة منع ارتكاب السوائل لحماقات؛ فحركة الطبيعة لن ترحم عابثًا مثلما ستكافئ النبهاء، فهناك بقع من الماء سينتهي مصيرها في بالوعة الصرف الصحي، وأخرى ذكية ستتمكن من الوصول إلى صنبور المياه في عقر داره... نعم.. ستنطلق من الصنبور لتؤلم عين خصم يغسل وجهه صباحًا؛ وهناك قطرات أخرى لن تُنسى.. اعْتَقَلها في عينه مطبقًا جفنه بعد أن غسل وجهه.. يوم تحريرها هو اليوم الذي تخرج فيه من عينه.. يوم يذرف الدموع!!

* * *



بين التغيير التدريجي والثوري



خلتنا تُهنا في الطريق ونحن نبحث عن المطعم.. أكد لي السائق أن هذا هو الطريق الصحيح؛ فشارع « الصبر » لا يوجد سواه في هذه المنطقة.

اتصلت بصديقي لعله يرشدني.. فلا أرى أية آثار للمطعم الذي يُفترض أن نلتقي فيه.

سألني: أين أنت الآن؟ أخبرته أننا في الشارع الذي وصفه لنا.. شارع « الصبر »..

أجاب منزعجًا: لم أقل شارع « الصبر »... قلتُ: إن المطعم في شارع « الصقر »، الشارع الموازي للشارع الذي تسيرون فيه؛ فشارع « الصبر» لا ينتهي إلَّا عند المقابر.

سألته: وما العمل الآن؟ قال: تعودون في الاتجاه المعاكس، وتقطعون الشوارع الجانبية حتى تصلوا إلى شارع « الصقر ».

نظرت إلى السائق بضجر، فقد وصف صديقي له العنوان، لكنه استبدل الباء بالقاف، فليس الصبر كالصقر، وكل متر كانت السيارة تقطعه كان يبعدنا أكثر عن هدفنا، سألته أن يسرع ويدخل من أي شارع جانبي منحرفًا عن مساره الطبيعي، سألته أن يحدث تغييرًا جذريًّا في المسار.. سألته أن يثور..

فقد تكون الثورة أحيانًا علاجًا فعالًا لأزمة التقدم التدريجي في المسار الخطأ. حين لا يقود البناء المتراكم على ما سبق إلَّا إلى مزيد من الانحراف عن الهدف، حينها نكون في أمسِّ الحاجة إلى الثورة بمعنى التغيير الحاد والجذري في الأفكار ونمط الفعل؛ أي تغيير المسار بشكل جذري قبل أن تصل المجتمعات إلى الهاوية.

فعندما تسوء الأوضاع، وتعجز التصورات والنظريات السائدة عن تغيير الواقع؛ عندها يتطلب الأمر ثورة فكرية لتتمثل في الواقع في شكل ثورة في الأداء؛ فالثورة الفكرية

استبدلت في العقل اسم الشارع ليتحول من « الصبر » إلى « الصقر »، وثـورة الأداء تطلبت انحـرافًا سـريعًا، وحادًّا في المسار. وبـعد هـذا الانـحـراف الثوري للمسار يبدأ التقدم التدريجي في تطوير المسار الجديد الذي جاءت به الثورة؛ فتحسب الخطوات التدريجية في شارع « الصقر » لصالح مشـروع التغيـير، حـيث تُخدم الـرؤى الجديدة، وتُطَوَّر النظريات التي صُـمِّـمت لتغيـير الـواقـع؛ وبهذا البناء التدريجي للأفكار والمشاريـع تـتقدم المجتمعات. لكنها بعد فترة وعند نقطة مـحددة مـن الفعل التراكمي قد تصاب بحالة من الجمود، وعجز نظريات ورؤى الأمس عن مواكبة طفرة واقع اليوم، مما يتطلب تغييرًا ثوريًّا جديدًا، يعيد توجيه المسار في اتجاه جديد؛ وبعد أن ينجح في ذلك يبدأ البناء التراكمي التدريجي من جديد، وهكذا يتطوَّر عالم الأفكار وفق رؤية هيجل.

يحار البعض!! هل يسلك سبيل التغيير الجذري أم التدريجي؟!

وتعتمد إجابة هذا السؤال بالأساس على المسار الذي يسير فيه السائل؛ هل هو في شارع « الصبر » أم « الصقر »؟! فنوعية الأفكار المطروحة هي الحاكمة، فإن كانت قادرة على اختراق الواقع فليكن؛ لتُبذل الجهود في تعزيز هذه الأفكار ودعمها، باعتبار أن المجتمع وضع أقدامه بالفعل

في شارع « الصقر »، وهو يمر بمرحلة البناء التدريجي، وإن كانت الأفكار تقود إلى اتجاه معاكس، ومنحرفة عن مسار بلوغ أهدافها متجهة بالمجتمع نحو المقبرة؛ فلتبدأ الثورة التصحيحية للمسار من شارع « الصبر »، بالانتقال الجريء إلى الشارع الجديد.

فالفرق بين أطروحتي الثورة والتغيير التدريجي أن الأولى تناقش صحة المسار من أساسه، بينما الثانية تعتقد بصحته مع اعتماد التدرج كإستراتيجية لتطويره. الأولى تقول إن تغيير المسار لا بد منه، والثانية ترى أن المسار صحيح لكنه يتطلب صبرًا وتدرجًا وتراكمًا في الفعل.

فاسأل نفسك أولًا.. هل أنت على مسار صحيح؟؟ لأن كل خطوة تخطوها في شارع « الصبر » تبعدك عن المكان؛ فالخطان المتوازيان لا يلتقيانِ أبدًا، هذا يقود إلى المقابر، وذاك يقود إلى المطعم، فلا بأس إذن من إعادة تعريف الصبر؛ وذلك بالصبر على تبعات الانحراف الحاد عن المسار القديم برؤية قوية كعين الصقر.

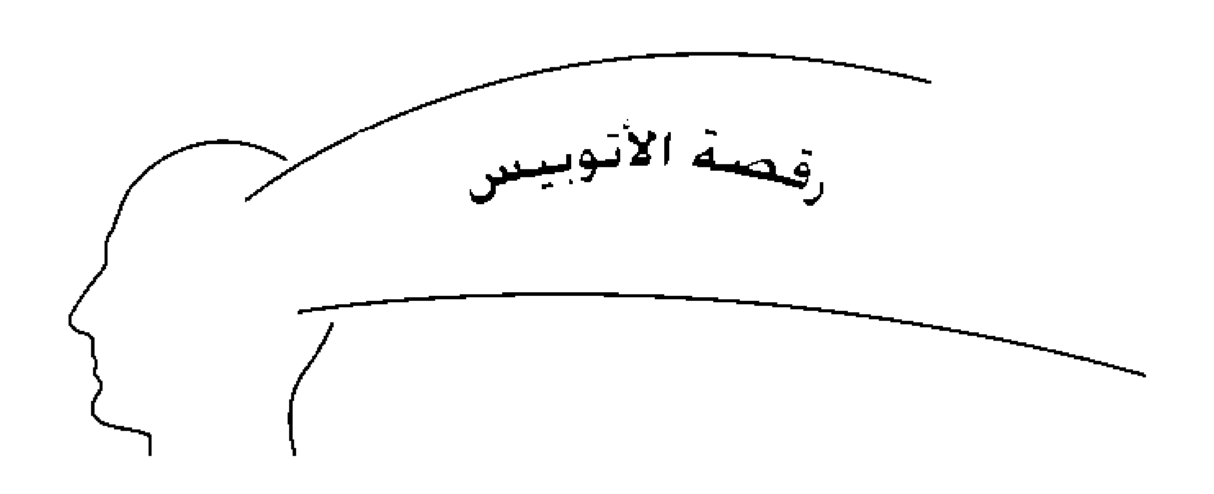
وبعد أن تضع أقدامك على الطريق الصحيح، ابدأ الخطوات التدريجية التراكمية التي ترى أنها تقربك من هدفك؛ فإن اكتشفت زيف الطريق، فلا تتردد في أن تفعل مثلما فعلتُ!!

فقد اكتشفتُ أنني سمعتُ كلمة « الصقر » بالخطأ أيضًا،

وكان عليّ أن أتجه إلى شارع « الصدر »، ولم تعد للخطوات التدريجية المتأنية أية قيمة طالما أني أسير في مسار خطأ؛ فانحرفت ثانية في مسار ثوري « بصبر جميل »، و« رؤية صقر حادة »، و« سعة صدر »، تقبل تغيير المسار بثورة ثالثة إن لزم الأمر.

يمكن القول إذن، أن التغيير الثوري يضع أقدامنا بجرأة على المسار الجديد، والتغيير التدريجي التراكمي هو وقع أقدامنا متجهة للأمام على ذلك المسار.

* * *



أزمة أفراد أم نظم؟؟



- « في البداية كنت أضع الورقة في جيبي، ولا ألقيها في الشارع؛ استجابةً لتعليمات أمي... بعد ذلك صرت أعاني من أزمة نفسية؛ فها أنا أمسك الورقة بيدي، أكاد ألقيها في الشارع. لكن نصائح أمي تطاردني، فإذا بي أحجم عن تشويه

الشارع بها، غير أني لا أجد مكانًا ألقي فيه الورقة، ولم يعد في جيبي متسع، بدأت أتلفت حولي خشية أن يلحظني أحد، ثم ألقيت بها على أحد جوانب الرصيف».

سألته بعد أن أمسكتُ بقوة بعمود أستند عليه في الحافلة: لا شك أنك بعد ذلك كنت تتألم كلما تذكرت هذا الموقف.

رد عليَّ متهكمًا وهو بالكاد يحفظ توازنه: بعد ذلك صرتُ أفتح نافذة السيارة لألقي بالورقة دون أن أبالي... كم كنت أحمق عندما فكرت في وضع تعليمات أمي موضع التنفيذ.

قلت له – وقد تشبثت بجسده هو في تلك المرة بعد هزة قوية –: مستحيل.. تعليمات أمك هي الصحيحة... لا تخدع نفسك.

أجابني بعد أن دفعني: بل تعليمات النظام هي الواجبة الاتباع..

كانت أمي تطلب مني أن أقف في الطابور بنظام، وألَّا ألقي ورقة في الشارع، ولكم أخبرتها بحيرتي؛ فمن أحق بالإصغاء والبر؟! تعليمات الأم أم النظام؟؟!! فتعليمات النظام مفادها لا مفر من أن تلقي الورقة في الشارع، وأن تزاحم الناس في الطابور؛ إذ لا توجد أماكن مخصصة لإلقاء القمامة، أو تقنية محددة تعتمد فكرة الطابور.

فكرتُ مليًّا.. هل علينا أن نزجر ونؤنب الأفراد لسوء سلوكهم؛ أم إن هذا هو سلوك الأمر الواقع لا السلوك الأفضل؟! نظرت إلى من حولي في الحافلة... رأيت رجلًا تبدو عليه علامات التعب، ويتدلى شاربه على شفته في حذر.. هل هذا الشخص البسيط هو المستحق للتأنيب أو حتى التوجيه؟! هل يكفي حث الناس على سلوكيات رائعة، أم يجب إيجاد النظم والقوانين المناسبة لجعل هذه السلوكيات واقعًا؟!

- قطع سيلَ الأفكار وقوف مفاجئ للحافلة، اصطدَمْتُ بالسيدة التي كانت بجواري... نظرتْ إليَّ وقد أطلقتْ مخالبها تكاد تفترسني قائلة: ألا تنتبه يا أستاذ؟!

احمرَّ وجهي.. قلت آسفًا: عفوًا يا مدام.. لم أكن يومًا من الأيام تصادميًّا.. غير إنه ما باليد حيلة. هذه ليست أخلاقي أو سلوكياتي... لكن النظام هنا في الأتوبيس يسلبك الإرادة..

قاطعتني بغضب: أولًا أنا آنسة، ولست « مدام »... ثانيًا أرجو أن تسدِي إليَّ جميلًا وتوقف خطبتك... ليس هذا وقت التفلسف.

صرخ السائق: يا جماعة لا تقفوا أمام الباب... حتى يتمكن الركاب من النزول...

حينها صاح أحدهم: وهل ترانا نقف أمام الباب بملء

إرادتنا لنعرقل الحركة؟! أم أننا بقدرة قادر وجدنا أنفسنا أمامه؟!

نظرتُ إلى وجه السائق عبر المرآة الأمامية شاكرًا إياه أن منحني الإجابة... فما جدوى أن تطلب من شخص في حافلة متكدسة ألا يسد الباب؟! يبدو أن خَلْقَ النظام يأتي أولًا..

ثم عدتُ وطردتُ هذه الترهات من بالي؛ فالنظم الصالحة لا تطبق إلَّا على أفراد يستحقونها؛ وهؤلاء الحمقى الذين يحيطون بي في الحافلة هم المخطئون، ولا بد من حملات توعية كبيرة لهم في كل مكان حتى يغيروا سلوكهم؛ فالمجتمع ليس إلَّا أفرادًا، إن حسن سلوكهم حسن المجتمع. ولتكن الحملة الأولى بعنوان: « لا تضغط على حذاء زميلك في الحافلة »، أمَّا الحملة الثانية فعنوانها: « لا تقل للآنسة يا مدام »، وليكن شعار الحملة الثالثة: « أن تتعلق على الأعمدة داخل الحافلة كالقرد خير لك من أن تسدَّ الباب »، والحملة الرابعة: « برجاء التقليل من معدل التنفس حفاظًا على الرائحة الحضارية للحافلة ».

- حُشِرَتْ الحافلة في شارع ضيق مليء بالمطبات. تكدست الأعداد فيها، حتى برزت الوجوه للخارج من النوافذ، وامتلأت السلالم بالبشر... خلتني أقف على قدم واحدة، فالأخرى يبدو أن أحدهم أخذها بالخطأ وهو يلملم شتاته كي ينزل!!



نظرت إلى أحد سعداء الحظ ممن نالوا شرف الجلوس على مقعد، رأيته مبتسمًا ويتمايل في رقصة سخيفة، هممت بتوبيخه، لكنني تريثت، فلم يكن ذنبه أنه رقص رغم أنفه.. فقد أبطأت الحافلة؛ وهي تتجاوز مطبًّا تلو آخر في ميوعة منقطعة النظير، حينها فَكَّرْتُ، ترى من الذي يرقص؟! هو أم هي؟! فإن كانت هي.. فلماذا «تتقصع» هكذا؟! لِمَ تتراقص في شارع محترم وقد ضاق عليها ثوبها فبرز ركابها من الأرداف أمام أعين المارة؟! بدأ الركاب يلعنون الحافلة، يكادون يرجمونها، ولكن مهلًا.. هل تسعى للوقوع في الخطيئة؟! أم أنها تسير وفق تعليمات الطريق؟! أليس من الأولى إذن إصلاح البنية التحتية للطريق ثم الحكم عليها؟! فالبنية التحتية هي التي تحكم سلوكها.

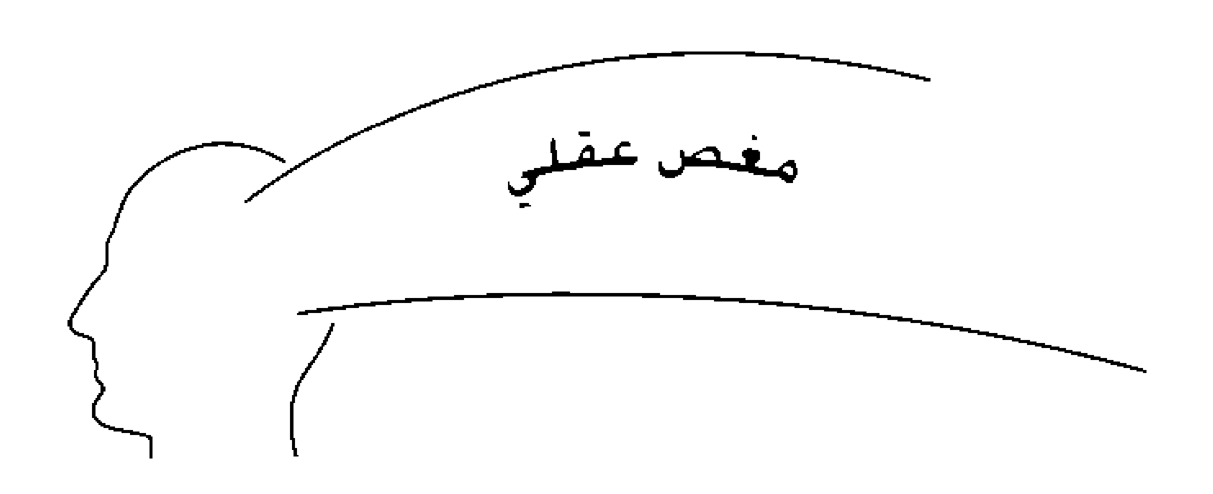
والبنية التحتية للسلوك هي النظم (الاقتصادية والاجتماعية والسياسية....) التي تنظم الحياة، والسلوك هو انعكاس لكفاءة النظم، وفاعليتها، وفلسفتها في إدارة الحياة؛ فالحافلة تتأثر في مشيتها بالشارع، ومهما أرادت أن يستقيم سيرها فلا مفر أمامها من طريق الالتواء والميوعة بحسب ما يمليه عليها الطريق...

كنت كلما نظرْتُ من الشباك، ورأيت الناس في الشارع خلت الأخلاق في انهيار، فلم يعد في الناس خير، لكنني تيقنت أن العيب ليس بالدرجة الأولى في هؤلاء الطيبين؛ فقد ارتكبتُ في الحافلة بعض أخطائهم التي لم أذكرها هنا. أدركت أن زيهم ولغتهم وسلوكهم لا يعكس ذاتهم بقدر ما يعكس ما هو أعمق.. أدركت أن شيئًا ما خفيًا كان يقود تصرفاتي، أن الفرد ليس هو وحدة بناء المجتمع الأولى[1]، أن ما لانراه يهيمن على ما نراه؛ فالأكسجين الذي لا نراه هو الذي يمنحنا فرصة جديدة كل لحظة كي نعيش، أمّا النظم التي لا نراها، فهي التي تحدد لنا كيف نعيش!!

نزلتُ من الحافلة بعد عناء... تنفستُ الصعداء... التفت إليها مبتسمًا بعد أن أعدتُ هندمة ثيابي، فالآن فقط عرفتُ إجابة السؤال.. من أين يبدأ التغيير؟؟ من تمهيد الشارع أم لعن الحافلة الراقصة؟؟

---

(١) حتى في ظل النظم المتطورة توجد مخالفات وتجاوزات من بعض الأفراد، لكن بصفة عامة حيثما وجدت النظم الصالحة وجد المجتمع الصالح؛ فالفرد الذي لا يحترم إشارة المرور في بلد يغيب فيه النظام المروري نجده يحترم الإشارة عندما يسافر إلى بلد آخر يضع نظمًا عادلة وصارمة للسير والمواصلات، وتظل هناك فئة من الناس لا تتطور بعد انتقالها إلى مجتمعات تحكمها نظم صالحة؛ وربما يرجع ذلك إلى العطب الجذري الذي نال من عقولها ونفوسها في فترة الحياة في ظل أنظمة متخلفة؛ فتجدها على سبيل المثال تتفاخر بالتحايل على القانون، فنظام «الفهلوة» أصبح جزءًا من تكوينها يجري في عروقها. فالنظم في البداية تلعب دور الموجه للأفراد، لكنها بعد فترة تشكل خلقًا راسخًا لديهم.



ابحث عن الشباب



قررت ألا أستكمل مع جدي شرح الجانب النظري حول كيفية عمل الكمبيوتر، وطرق نقل المعلومات داخله؛ إذ كان من الواضح أنه لا يعي شيئًا مما أقول، [illegible] [illegible]، بدأت مباشرة معه على مدى حصتين في تعليمه كيفية استخدام الكمبيوتر عمليًّا، أجهد

« الماوس» جدي، وهو يحاول مطاردة الملفات في: « الكمبيوتر »، بدت عليه علامات التململ... أقسم أن تكون هذه هي الحصة الأخيرة.

حضر العَشاء بعد أن فشلتُ في مهمتي.. ناديت أطفال العائلة؛ فهم ملح الطعام.. أخذ الجميع يأكل في نهم... إلّا أن الجد اكتفى بكسرات خبز مع الجبن حتى لا تضطرب معدته... همس أحد الأطفال في أذن الجد.. « جدو.. أنا أشطر منك... أستطيع أن ألعب أية لعبة على الكمبيوتر »، بينما لا زلتَ تبحث عن مؤشر « الماوس »... ثم أمسك الطفل بالـ« ساندويتش »، وانهال عليه قضمًا..

تستطيع المعدة الفتية أن تنهل من أنواع الأطعمة دون تعب، لكن بمرور الوقت وجريان العمر تشترط المعدة كمية وأنواعًا محددة من الأطعمة؛ حتى تستطيع أن تعمل دون تذمر. ويخيل إليَّ أن العقول كذلك يتفاوت هضمها للأفكار بحسب عمرها؛ فكلما كانت « المعدة العقلية » شابة؛ كانت شرهة ولديها جلد، وتحمل للأفكار الجديدة، وكلما تقدم بها العمر؛ تبدأ تقنن لنفسها أنواع الأطعمة والمشروبات الفكرية التي تحمل تصريح دخول!!

لذلك من المهم أن ينتبه أصحاب الأفكار الجديدة إلى هذه الطبيعة الخاصة لمعدة العقل، وألا يثقلوا على كل الناس؛ ليجبروهم على تناول أفكارهم، فليس كل إنسان

تصلح معدته لهضم أفكارك؛ لمجرد أنك تأمل أن يقتنع، أو لمجرد أنه صانع القرار الذي يُرجى أن يعدل مساره. فقد كنت أريد لجدي أن يتعلم استخدام « الكمبيوتر»، حتى يستطيع أن يستمع إلى كل البرامج والأغاني التي يحب، بدلًا من استخدام الراديو وشرائط الكاسيت، لكنه لم يستجب، وكان دائمًا يقول: « يا بني.. عقولنا تختلف عن عقولكم »، وحتى حين يستخدم الجهاز الحديث، فإنه يتعامل معه بمنطق الآلة التي اعتاد التعامل معها، فهو يحرك كل شيء ببطء كما اعتاد أن يحرك مؤشر الراديو؛ وكلما نظر إلى « الكمبيوتر » يسأل نفسه، ترى أين مؤشر تغيير المحطات؟!

وأساطين الفكر القديم يعيشون صراعًا نفسيًّا عظيمًا إزاء ثورة الأفكار؛ إذ إنها تنعي إليهم عمرهم الذي قضوه في فكرة ربما أخطأت الطريق، وكلما نظروا إلى تاريخهم السالف؛ يئسوا من استدراك المستقبل؛ فيؤثرون السلامة راضين بالسير في طريق... أي طريق..

وطَرْحُ الفكر الجديد عليهم والإلحاح به يؤذيهم ويؤلم عقولهم؛ إذ يدعوهم لتغيير نمط النظر للحياة. وربما لا يكون من الإنصاف إرهاقهم بأطروحات فكرية مختلفة جذريًّا؛ إذ ليس ذلك من الرحمة في شيء. ترى هل من الرحمة أن تطالب شيخًا طاعنًا في السن بالجري السريع بحجة أن له قدمين وساقين مثلك؟!

قد يتساءل البعض!! ولكن هؤلاء القدامى هم صنَّاع القرار في مؤسساتهم، وإذا تم التأثير فيهم وإقناعهم فستكون عمليات التحول سريعة وممكنة. لكن تاريخ الثورات العلمية ينبئنا أن الحقائق العلمية لا تنتصر؛ لأنها تقنع المعاندين، فالحقيقة العلمية تُكتب لها الحياة بسبب موت المعاندين فكريًّا أو جسديًّا، وظهور جيل جديد ينظر بحيادية إلى المسائل المطروحة سابقًا

وهل هُضمت أفكار كوبرنيكس الذي حدد موضع الأرض من السماء إلَّا بعد قرن من وفاته؟؟!! وهل انتشرت الهواتف الخلوية ووسائل الاتصال الحديثة نتيجة اقتناع الأجيال القديمة بضرورتها؟! أم نتيجة ظهور جيل جديد يتلقفها؟! حتى إنها صارت دمية في أيدي الأطفال.

غالبًا ما يأتي تغيير الأفكار عبر هذه الثلة الفكرية الشابة التي تفتحت عيونها للتَّو على العالم؛ فتنظر في أطروحات الأقدمين بحيادية. فليس من مصلحتها تَبَنِّي طرح هذا أو ذاك؛ لأنها على أتم استعداد أن تحدث ثورة في طبيعة النظر للأشياء. إنها ليست منحازة للراديو؛ بل منحازة لأسرع وسيلة تُسمعها ما تهوى.

وإذا كان هرم المعدة العقلية أمرًا طبيعيًّا كسنة من سنن الحياة؛ إلا أن المزعج هو تلك العقول التي ظاهرها الشباب وباطنها الشيخوخة، أولئك الشباب الذين يحاولون الاقتداء

بكبار السن فيما لا يَحسُن الاقتداء به في عالم الأفكار، متوهمين أنهم بذلك حكماء، وما دروا أن كبار السن يمرون بمرحلة طبيعية في رحلتهم العقلية؛ ترى أحدهم يقول لك: « لعل في عدم استخدام « الكمبيوتر » حكمة يعلمها الكبار »، وقد هالني أمر هؤلاء.. فهل يُعقل أن يقتدي شاب صحيح في طعامه بمريض الضغط والسكر؟؟!!

على رواد الفكر أن ينتبهوا لمثل هؤلاء؛ فهم شباب متقمصون هيئة شيوخ، وُلِدوا بشعور بيضاء، خالوا أمراض المعدة صحة وعافية، وتشبهوا بالمرضى وخاصموا الأصحاء؛ فلتُبذل الجهود في تحرير أولئك الشباب من حالة: « التمارض الفكري ».

إنني أُكنُّ احترامًا بالغًا لجدي؛ لأنه اعترف بأن عقل جيلنا يختلف عن عقله، وأننا الأقدر على التعامل مع أدوات العصر، فضلًا عن إنتاج أفكاره، ولطالما نصحنا بأن نأكل جيدًا قبل أن تُضرب معدتنا عن العمل، ولا أذكر أنه دعاني قط للسير على نهجه في الأكل بعد أن صار مسنًّا؛ فليس عيبًا في الجد أنه كبر، لكنني أعتب على ذلك الشاب الذي يسأل جده أن يعلمه ماذا يفعل إن وجد « فيروس » في « الكمبيوتر »؟ فقد تغيرت أشكال، وأدوات، ومجالات الصراعات، وعلى الأجداد أن يسألونا... ماذا أنتم فاعلون؟!! فهذا عصركم وعالمكم وهذه أدواتكم، فأين أفكاركم الناجزة؟!

وعندما تعجز أفكار الأجداد عن التصدي للواقع، يجب أن نترقب ظهور تصورات جديدة، صارخين مع كوبرنيكس، الأرض تدور حول الشمس وليس العكس؛ فالتصور الجديد سيخلق ثورة في الفعل، وحينها يجب ألا تتوجه صرختنا نحو الشيوخ؛ لأن أسس البنية الفكرية التي سيعتمد عليها الثوار تختلف في العادة جذريًا في كثير من مفرداتها عن أسس البنية الفكرية التي بنى عليها الأجداد أفكارهم. وهذا ما يخلق صعوبة في التواصل بين جيل الثورة الفكرية وجيل الفكر المثار عليه. فليُترك الأجداد يمارسون حياتهم التقليدية دون منغصات، خاصةً إن كانوا غير مدركين بعد لتفوق الواقع على أفكارهم.

على حاملي الأفكار الجديدة أن يديروا أعينهم... وينظروا هناك... على الناحية الثانية من طاولة العَشاء.. هناك حيث تَهضم المعدة الأطعمة بشراهة، حيث يبزغ قرص الشمس الذهبي؛ وحيث يحتشد الجيل الجديد الرائع المتعطش لفكرة جديدة لامعة.

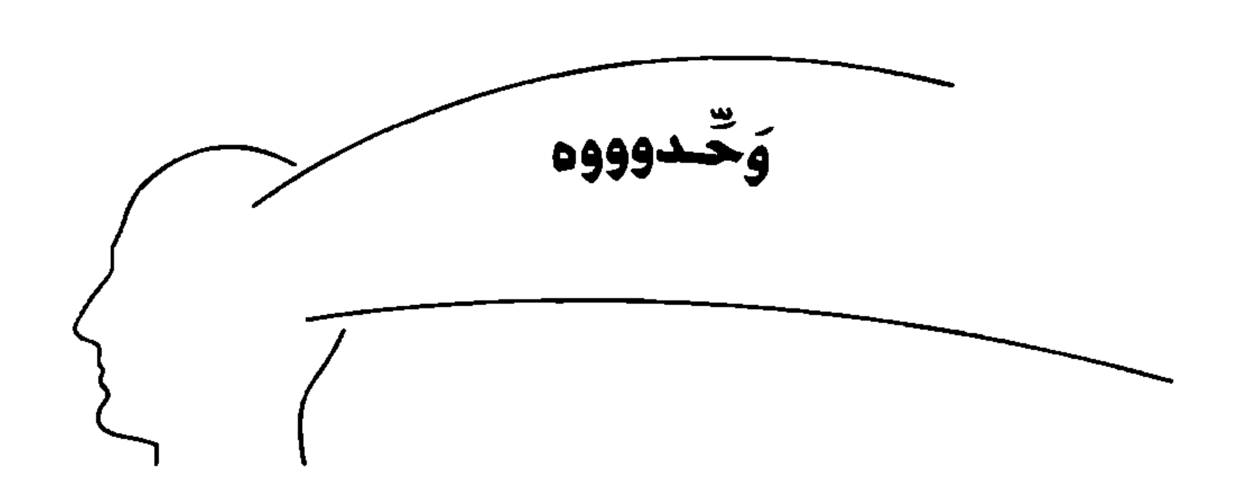
أمَّا العقول التي هرمت؛ فتحتاج إلى جرعات فكرية مخففة، وإلا أصابها مغص فكري، تليه تشنجات حادة. فقد تبذل عمرك في إقناع الأقدمين بفكرة جديدة ثائرة، فيخدعك خفض رؤوسهم تواضعًا لك... لكن انتبه، إنهم يحنون رؤوسهم من شدة الألم، يضعون أيديهم على

بطونهم من فرط المغص، وسرعان ما ينفد صبرهم، وتصبح الأفكار فوق طاقتهم؛ فتتقيأ معداتهم أفكارك، فور انصرافك من أمامهم[١].

***

---

(١) ليس الحديث هنا عن القابلية الأكبر لدى الشباب دون الشيوخ لقبول الأفكار الجزئية المتعلقة بعلاج أزمة محددة؛ فلا شك أن للشيوخ خبرات ثمينة يحتاجها الشباب، ما نريد التركيز عليه هو الفاعلية الكبرى للشباب في الاستجابة لنداء التغيير عندما يكون المطلوب هو تغيير نمط التفكير الكلي الذي ننظر من خلاله إلى العالم؛ حيث يكون الشباب أكثر جرأة وقدرة على التخيل. وقد تناول بروفوسير فلسفة العلم توماس كون هذا الأمر في كتابه بنية الثورات العلمية، وتناول دور الشباب في دعم ثورة آينشتين حينها دون شيوخ العلم. فقد تعودوا منذ بداية دراستهم على النظر إلى الأشياء بمنظار الفيزياء الجديدة، فكانوا لا يقابلون من الصعاب في التخلي عن بعض أفكار الفيزياء القديمة قدر ما يقابل الأكبر سنًّا. كما يؤكد توماس كون أنه عادة ما كان تغيير الإطار التصوري العلمي يقوم به شباب حديثو السن أو جدد على المجال الذي يبحثون فيه، فلا يتقيدون بالقواعد السابقة، وتكون لديهم القدرة على العمل وفق قواعد جديدة. ويرى كذلك أن ظاهرة تقبل الشباب للأفكار الجديدة التي ينكرها الكبار في العمل العلمي تكاد تكون فكرة شائعة متداولة في الحقل العلمي.



☜ اخرج من التابوت

لست مبالغًا حين أقول أنني رأيتهم في المقبرة، قد لا تصدقونني.. أو تظنون أنه شُبَّه لي.. لكنني حقًّا رأيتهم ينهضون من قاع الأرض، تغشاهم الأتربة، وتفوح منهم رائحة نتنة، بعضهم بدا كهيكل عظمي مخيف.. لست أدري كيف حدث هذا.. وكيف اختلط الأحياء بالأموات.. وهل سيكون هذا الحدث هو عنوان المعركة المعاصرة؟؟ أم أن عالم الموت سيحتل عالم الحياة؟!

فبعد أن دَفَنَّا صديقًا عزيزًا النا بدأ بعض الزملاء يتحدثون.. بعد فترة من حديثهم الممل؛ تأملت ملامحهم.. لم يكونوا مثلنا.. هتفت فيهم.. كيف خرجتم من داخل المقبرة؟؟ وكم عددكم؟؟

اكتشفت هؤلاء الأموات عبر ذلك الكمِّ الهائل من التراب الذي يتفجر من أفواههم حين ينطقون، أو يطمس كتاباتهم

حين يكتبون، أمَّا القاسم المشترك الذي كان يجمعهم كلهم هو تلك المقولة: « الأمل في الجيل القادم.. في أبنائنا ».

لم يدر هؤلاء الطيبون أن آباءهم لطالما رددوا نفس المقولات؛ وأنهم بالفعل « الجيل القادم » الذي بشر به آباؤهم.. ترى لماذا يكررون ما فعل الآباء، ويقومون بترحيل الواجب المنوط بهم إلى الجيل الذي يليهم؟!

أزعجتني الفكرة؛ فهرعت إلى الشباك لأستنشق بعض الهواء النقي.. رأيت سيدة تحمل جنينًا في بطنها وتمسك بيد زوجها في سعادة واضحة.. لعلهما الآن يتحدثان عن مستقبل طفلهما المرتقب.. هممت أن أهتف بهما.. احذرا الخيانة، فثمة صنف من البشر يرمي بالمهمة العظيمة على جيل في الأرحام؛ تودان لابنكما حياة أفضل لكن لهذا الصنف قول آخر.. إنه يريد لنفسه هو أن يعيش في عالم أفضل، حيث يرتاح عقله من التفكير، ويكف عن الحركة الفعالة. وكيف لا و« الأمل في الجيل القادم ».. أمَّا طفلكما فدوره معروف، فهو من « الجيل القادم » الذي سيصحح أخطاء من سبقوه، ويقوم بالمهمة التي يشتد تعقيدها جيلًا بعد جيل. لقد أوكل بعض أبناء جيلنا مهمتهم إلى الأموات، سواء الذين يرقدون في الأرحام، أو الذين يرقدون في القبور من زعماء التاريخ.. لم يعد جيلنا في نظرهم هو « الجيل المنتظَر ».. إنه « الجيل المنتظِر »..

لا تروقني فكرة أن يُنعى إلينا جيلنا، وهو في قمة حيويته وفتوته، فلا يزال لديه الكثير ليقوله والمزيد ليفعله. فلينفض عن عقله التراب، ويستجب لصرخة البعث، بعث الروح والفكر فيه من جديد. وليَعِد الجيلَ القادم أنه إن لم يُدخله بوابة النصر؛ فإنه على الأقل سيقدم له ماضيًا مشرفًا يمكن البناء عليه.

لا يمكن التفكير في الجيل القادم بمعزل عن دورنا؛ إذ نحن صنَّاع ماضيه، ذلك الماضي الذي سيشكل جزءًا مهمًّا من وعيه بمستقبله؛ فأي ماضٍ سنهديه إياه؟! هل سيأتي الجيل القادم ليجد موادَّ أولية يستطيع أن يستعملها في البناء؟ أم سيُفاجَأ بأنه من مواليد الصحراء شارع المتاهة عمارة رقم ما لانهاية؟! إن لم نحسن إذن صناعة مستقبلنا، فلنُتقن صناعة ماضي الجيل القادم.

رأيت الأموات يحاصرونني في كل مكان.. كنت أميزهم حين يرمشون؛ فتتطاير ذرات التراب من أعينهم المنطفئة، التي لا تتطلع إلى المستقبل. والتعرف على الأموات بيننا لم يكن سهلًا؛ إذ اكتشفت بمضي الوقت أن الأموات ليسوا فقط من يرددون بألسنتهم مقولة: «الأمل في الجيل القادم»، فقد يدينها بعض الناس بألسنتهم لكن ممارساتهم تدعمها، حيث يتحركون في دوائر مغلقة من التكرار عديم الجدوى؛ فظاهرهم الحماس والحيوية؛ لكنهم يوقنون في قرارة

أنفسهم أن أعمالهم لن تقود إلى شيء ذي قيمة حقيقية في تغيير الواقع، وحين تقترب منهم ستلفحك أعاصير الأتربة؛ إذ يعيشون في عالم الأموات، وينفذون مشاريع لا تؤثر في واقع الأحياء.. اللهم إلَّا نتن رائحتها المنفرة لأغلب الناس، ولا تغرنك زينة الأشكال والعطور؛ فالأموات يتنكرون في أفضل الثياب أحيانًا، لكن الأعين الثاقبة سرعان ما تدرك أن هذه البهرجة ليست إلَّا ترابًا، وأنف اللبيب لا يخطئ أبدًا رائحتهم، وعقل الفطِن يعي أن سياراتهم ليست إلَّا توابيت متحركة.

احترتُ كثيرًا.. كيف يخرج الموتى من مدافنهم؟! فاكتشفت أن « التُّرَبِي » دافن الموتى هو السبب؛ إنهم بعض القدوات من النخب والمثقفين الذين يتبعهم الناس، أولئك الذين لم يفلحوا في إبداع رؤية لتغيير الواقع، وهم في نفس الوقت لا يريدون أن يخسروا موقعهم في أعين الناس، وبدلًا من أن يقولوا لا نعرف حلًّا، ينفون وجود الحل، فهم يبررون عجزهم عن إيجاد بدائل؛ لدفع عجلة الحياة بتزيين موت العقول واعتباره فضيلة، وترحيل الفعل الجاد إلى مجهول باعتبار أن ذلك ما تقتضيه الحكمة، وتحويل السكون إلى إله التأني والفطنة والوعي؛ فإذا بهم يقودون الناس إلى مكان مريح في مقبرة الأفكار، صاغوا من الموات والاستسلام فلسفة، حتى إنك تجد في كل مكان سرادقات عزاء تبشر بالجيل الجديد.

هناك مشاريع تتطلب بالفعل تواصلًا بين الأجيال؛ وهي المشاريع الحضارية الكبرى، حيث يشيد كل جيل درجة في السلم الحضاري، ويأمل أن يأتي الجيل التالي ليضيف درجة جديدة وهكذا.. وعلى الجيل الحالي - قبل أن يتحدث عن دور الجيل القادم - أن يحدد أي الأشواط سينجز تحديدًا، وأي الأشواط يتمنى أن تأتي الأجيال القادمة لتتمها؛ حينها فقط يصح أن نأمل أن يستكمل الجيل القادم المشروع، وحينها فقط يمكن أن نميِّز بين التبشير بالجيل القادم كتعبير عن اليأس أو الفعل الممنهج.

كان الطفل الممسك باليد الأخرى للأب يقول له: « بابا .. بابا .. أريد هاتفًا بكاميرا »..

لقد حددتْ الأجيال السابقة أقصى آمال هذا الطفل، كان يفترض أن تختلف أمنيته تمامًا.. فثمة تباطؤ تم نحو خلق عالم أفضل، نتيجة تقاعس أجيال، أو اختيارها الخيار الأسوأ؛ فبعض الاكتشافات العلمية لم تُعتمد إلا بعد مئات السنين، وإذا حسبنا الفجوة الزمنية بين أهم الأطروحات العلمية وبين اعتمادها والاعتراف بها؛ لاكتشفنا أننا كنا سنجد شكل الأرض مختلفًا تمامًا، لو كان كل جيل سبقنا أدى دوره كما ينبغي، واختار الخيارات الأفضل.

فتقاعُس بعض الأجيال عن الدفاع عن تلك الأطروحات أو تطويرها أدى إلى وجود فراغات تاريخية في التقدم تقدر

بآلاف السنين، ولو دار التاريخ دورته بشكل نموذجي يؤدي فيه كل جيل دوره؛ لتقدمت البشرية بفارق قرون عديدة على ما هي عليه الآن، ربما كنا من سعداء الحظ الذين يسافرون عبر الزمن أو يولدون على ظهر كوكب آخر لم تصبه حمى الاحتباس الحراري، سامح اللَّه الأجيال المتكاسلة التي بشَّرت بقدومنا..

لا تبشروا الآن بالجيل الجديد من بعدكم ناعين أنفسكم؛ بل بشروا بأنفسكم.. وامنحوها فرصة لتحيا من جديد؛ فَوَأْدُ النفوس والعقول محرم. وإن كنتم لا تدرون ماذا أنتم فاعلون بكل هذا الكم من التراب الذي يحيط بنا؛ فنصيحتي أن نشيد به المباني لا أن ندفن به الموتى، فضلًا عن أن نحثوه فوق رؤوس الأحياء.

اعلموا أن خياركم اليوم سيؤثر في مسار البشرية كلها.. فهو الذي سيحدد أمنيات وبرامج عمل أجيال قادمة..قاوِموا موتى الجيل.. أخرجوهم من توابيتهم العقلية.. أيقظوهم.. أو ادفنوهم.. المهم أن يتسربوا هم ومواتهم من حياتنا.. قبل أن يجتمع الأموات الحقيقيون في قبورهم؛ ليتابعوا ما يجري فوق الأرض مرددين في أسى.. وَحِّدووووه... الفاتحة على روح المرحوم... أنتم السابقون ونحن اللاحقون!!

* * *



خاتمة

كانت هذه محاولة لتسليط الضوء على بعض المعاني والأفكار المعنية بإحداث ثورة في العقول؛ وهي معانٍ تحتاج إلى تذكير ثم انتباه ويقظة أثناء الممارسة الحقيقية في ساحة الفعل من أجل تنمية المجتمعات؛ وهي جديرة بأن تصل إلى كل إنسان يسعى لتغذية عقله، وتطوير أسلوب تفكيره، ولا نعرضها على اعتبارها حقائق ومسلمات، ولكنها في حدودها الدنيا تطرح تساؤلات على العقل، حري به أن يسعى بجدية للإجابة عليها، ولا يضيرنا في شيء أن تختلف أجوبة القارئ عن ما طرح في هذا الكتاب.

إنها أفكار تنير ومضات في العقول، وهي موجهة لكل مهتم بأن يدير حياته بشكل أفضل على مستواه الشخصي في أعماله اليومية، وموجهة كذلك إلى النشطاء، والقادة المعنيين بالفعل الاجتماعي والسياسي، حتى يتمكنوا من تأسيس مؤسسات قوية تقوم على قواعد متينة، ويقوم بها مجتمع حر يحترم العقل، ويعلي مكانته، ويستثمر في تنميته.

إن زلزلة العقول من أَوْلَى أولويات صناع التغيير؛ لأنها تردم الفجوة بين المستحيل والممكن العقلي، وهي زلزلة تناقش في المسلمات، وما يعتقد أنه من الأفكار الرواسي،

وبهذه الزلزلة يعاد تشكيل العقول، ويعاد كأول تابع من توابعها إعادة تشكيل الفعل الميداني؛ لإحداث زلازل التحول على الأرض، وتقديم النقلات الكبرى في التجربة البشرية.

* * *

رقم الإيداع

٢٠١٠/٢٠٥٠

· الترقيم الدولي **I. S. B. N**

978 - 977 - 342 - 849 - 5



يتصدى لبعض أنماط التفكير المعيقة، ويواجه مجموعة من الأفكار القاتلة، ويسلط الضوء على زوايا دقيقة من نمط التفكير الحي الذي ينقل المجتمعات نقلات كبرى؛ باعتبار أن تغيير الأفكار عادة ما ينعكس في تغيير الأفعال وإعادة تشكيل الواقع.

والأفكار المطروحة في هذا الكتاب - مستوحاة من الواقع الحي، ومن أنماط التفكير والأفكار المنتشرة بين أوساط الشباب - تمت كتابتها في ضوء نقاشات ميدانية، وحوارات عبر شبكة الإنترنت، تم من خلالها رصد مجموعة من الأفكار وأنماط التفكير التي تتطلب معالجة، وبعض الأسئلة التي تتطلب أجوبة.

وأفكار الكتاب لا تجيب على التساؤلات إجابات حاسمة نهائية بقدر ما تطرح أسئلة على العقل تهدف إلى كسر أغلاله. فالكتاب دعوة للتفكير، والكاتب ليس معنيًّا بالتفكير نيابة عن القارئ. لذلك ليس كل ما هو مطروح حقائق يجب تبنيها؛ فالهدف هو أن تكون مثل هذه الأفكار موضع نقاش وأخذ وردّ، فهي لا تشكل نهايات للتفكير، بل بدايات.

وقد صيغت الأفكار بأسلوب ممتع وشيق، وبلغة سهلة عميقة، وتمت معالجة الأفكار عبر مواقف حياتية متنوعة، حتى لا تنتهي علاقة القارئ بالأفكار بانتهاء القراءة؛ لأنه سيتذكر هذه المواقف كلما تعرض لموقف مشابه، ومن ثم سيستدعي الفكرة المرتبطة بالموقف بسهولة.

Dar-Alsalam Designs

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢+)
الإسكندرية - هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣+)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

